مبادرة

القراءة بالمجان

الكتاب:عود بخور
الكاتب: حنان العشماوي
رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٢٨٥٢
ISBN: 978-977-800-072-6
تصميم الغلاف: إيمان صلاح
تدقيق لغوي- تنسيق داخلي:
www.sekoon.com

مدير النشر: فتحي المزين: 01282288056
Email: layanpub@gmail.com

لبان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

حنان العشماوي

عود بخور

مجموعة قصصية

ليان للنشر والتوزيع

إهداء

حين جلست أُعد الإهداء تزاحمت أمامي الأسماء، اكتشفت أنني أدين لِباقة رائعة من البشر كانوا قوة وأملًا في حياتي أمام ما اعتراها من مسارات مختلفة؛ لذا سأحاول قدر الاستطاعة أن أفي ولو بقدرٍ بسيطٍ من جميل أثرهم.

إليك ربي أهدي حروف كلماتٍ لم تكن لتخرج للدنيا دون مددك كي تصدر من الروح قبل أن يخطها القلم.

إليك يا أحَب الآباء وأعظمهم، يا منَ دعمت سنوات العمر من مبتداها بحُب القراءة وتنسُّم عبير الكتب أينما كانت..

أُهدي أول مجموعة قصصية.

إلى حبات القلب، يا من دام الحلم والأمل يدفعني كي أترك أثرًا من بعدي يكون مدعاة لفخرهم، إنه عمل أمي..

إليكما ولديَّ: عمرو، وحبيبة أهدي أول أعمالي.

لكلِّ من كان داعمًا بالكلمات والمساندة لتخرج هذه المجموعة للنور، أهدي أول مجموعة قصصية.

وأخيرًا، إليكِ يا سنوات العمر الماضي وأيامه، أُهدي إليكِ أول نجاحاتي ضوء أمل لباقي الطريق .

إلى جميع أحبائي وأصدقائي.. وإليك عزيزي القارئ أهدي أول أعمالي: «**عود بخور**»..

حلاوة روح

تبخـتر ضـوء الشـمس مختـالًا في يـوم بـاردٍ مـن أيـام طوبـة عـلى قريـة مـن قـرى ريـف مـصر الجميـل إيذانـًا بيـوم يسـوده بعـض الـدفء الحـاني عـلى سـكان القريـة والقـرى المجـاورة، نشـط الحـمام خـارج أبراجـه ينفـض أجنحتـه في حبـور وكأنـما يرحـب بالأشـعة الدافئـة كضيـف عزيـز لـه وحشـة.

بـدأ اليـوم مسـاره المعتـاد في كل ركـنٍ مـن أركان المـكان وتبادلـت الوجـوه تحيـة الصبـاح فيـما بينهـا، كلٌّ يسـعى إلى مـا دأب عليـه.

كل الأمـور الحياتيـة تلـف مـع دوران السـواقي مـع وجـود خطـب مـا في أحـد البيـوت، إنـه بيـت «عبـود المحمـدي».

وعبـود هـذا رجـل ضخـم الجثـة، مـع وجـه تبـدو الغلظـة عـلى قسـماته يسـاندها صـوت جهـوري خشـن حتـى في أكثـر لحظاتـه هـدوءًا.

يخشـاه أغلـب أهـل قريتـه؛ فهـو لا يتـورع عـن الاشـتباك مـع أيٍّ كان دونـما سـبب يُذكـر، وعـلى وصـف أهـل قريتـه: «راجـل رامـي بـلاه عـلى مخاليـق ربنـا».

تتكـون أسرة عبـود مـن ابنتـين صبوحتـي الوجـه، طيبتـيّ الخلـق والخِلقـة، توفيـت أمهـما مـن بضعـة أعـوام وتركتهـما لـكل صنـوف الإهانـات والأذى عـلى يـد الأب، بالإضافـة لحيـاة الكفـاف.. فهـو لا يعمـل، ولكنـه يُؤجّـر في الخناقـات، وأحيانًـا لتخريـب أرض بغيّـة طـرد مستأجريها منهـا، والجديـد في مجـال البلطجـة أيـام انتخابـات المحليـات؛ فهـو بلطجـي لا يُشـق لـه غبـار ومـا يحصـل عليـه مـن مقابـل يذهـب إلى الحشـيش وجلسـات الأُنـس والفرفشـة.

نـدع الآن الأب، ونعـود إلى البنـات: «بهيـة، ونجيـة». كانـت كبراهـن بهيـة فتـاة طيبـة حنطيـة اللـون وجههـا مليـح وقـوام يشـوبه بعـض السـمنة، تجـاوزت الثامنـة والعشريـن مـن العمـر، أي بوصـف النسـوة في القريـة فاتهـا قطـار الـزواج ولم تلحـق حتـى بالـ «سبنسـة»، أمـا نجية فكانـت في الثالثـة والعشريـن، بملامـح ناعسـة وقـوام جميـل متناسـق، وبرغـم طيبـة الفتاتـين، وأنهـما بشـهادة الجميـع «سـتات بيـوت مـا فيـش كـده وأدب وأخـلاق مـش مـن الزمـن ده»..

ولكـن مـن ذَا الـذي يتجـاسر عـلى نسـب البلطجـي قاطـع الطريـق سيء الأخـلاق وإن كانـت البنـات حوريـات مـن الجنـة..!

إلى أن كان يـوم دخـل عليهـما عبـود ناظـرًا إلى نجيـة، وبنـبرة صـوت آمـرة: جهـزي نفسـك، اليـوم جـاي عريسـك ياخـدك.

فتحـت الفتـاة فاهـا فخـرج منـه صـوت أشـبه بالهمـس: يابـا بـس بهيـة هـي الكبـيرة.

نظـر لهـا نظـرة جمّـدت الـدم في العـروق، تقـدم منهـا قائـلًا : هـو عـاوز بنـت صغـار تربيلـه الـكام عيـل الـلي أمهـم ماتـت وفاتتهـم،

راجل مليان عنده خمس قراريط وجاموستين وبلده مش بعيد عن بلدنا كتير. -ألقى إليها بحفنة من الجنيهات قائلًا-: خدي أختك وانزلوا هاتوا اللي تحتاجوه للجهاز وهدمتين تبانوا بيهم النهارده لما يجي هو وحريمه ياخدوكِ.

أدركت الفتاة وقتها أن البيعة قد تمَّت وها هي بعض نقود الصفقة.

بخس البيع والبائع.. ورحمة الله على البضاعة.

لم يعنِ الفتاة أن تباع بيد أبيها في سوق النخاسة تحت مسمى الزواج فلن تختلف الحال عما هي عليه الآن، ولكن ما جثم على الصدور هو هلع الأختين من مفارقة بعضهما البعض؛ فقد كانت كلٌّ منهما للأخرى بمثابة الروح من لجسد كان وجود إحداهما يعطي الأخرى الرغبة في الاستمرار.

لكن ها هو الحُكم قد صدرَ وسيتم اصطحاب المحكوم عليه لمقصلته اليوم ودون السماح برغبة أخيرة.

سكن الصوت في البيت الطيني، حتى الهواء أصبح ثقيلًا خانقًا برغم برودة الجو، وساد الحزن ملقيًا بكاهله على جوانب المكان.

خرجت بهية إلى «أم حمدي»، جارة لهم لطالما كانت تقوم بتجهيز العرائس من الأسواق التي تسافر إليها مقابل زيادة متفاوتة في الأسعار حسب مالية أهل العروسة.

استقبلتها «الدلَّالة» هاشة باشة في وجهها؛ فقد كانت تربطها بأمها صداقة قديمة.

حكت بهية الوضع، وسرعان ما كان أمامها حفنة من أردية النوم والملابس الداخلية المبهرجة بألوانها الزاهية وبعضٌ من جلاليب البيت والعبايات، انتقت بهية بكل المبلغ ما لم تحلم أختها به، أليست تلك النقود هي نصيبها من الصفقة وعادت إلى أختها وقد رسمت على الوجه الباكي أكبر ابتسامة تُطمئِن بها أختها أنها فرحة وسعيدة لرحيلها إلى دنياها الجديدة، ولم تنسَ أن تحضر من «أم حمدي» كيسين من الحناء لإكمال مظاهر الفرحة واحتضنتها بكل حب وحزن القلب وهي تهمس في أذنها:

- الحمد لله الدنيا هتتغير وربنا بعتلك من عنده عطية، راجل مقتدر، إنتِ مش شايفة عطى أبوكِ مهر أدّ إيه، بكرة وشك ينور بالعافية ويكون عندك بيت وعزوة، ولاد وراجل يتمنى لك الرضا ترضي.

ردت عليها نجية تحاول كاذبة أن تطمئنها عليها، وهي تعلم كم تتمزق أختها في محاولتها إخفاء لوعتها عليها:

- عقبالك يا أختي لما افرح بيكي شايلك جمل المحمل ست العرايس لبيت راجلك

وجلست الفتاتان تعجنان الحناء وهما تغنيان بقلوب دامعة وابتسامات كاذبة ولسان حال كل منهما تدعو للأخرى ألا تتهاوى أمامها فما هي إلا.. لحظات حلاوة روح.

تمَّت

❁❁❁

بائعة الورد

في عمر الزهور كانت، ذات ابتسامةٍ شقية وغمازاتين بالخدين تدعوان الناظر إليها للابتسام في وجهها. ربما كانت في الثانية عشرة أو أكبر قليلًا، لم تكن بنيتها قوية بل كان جسدها أشبه بجسد صبي؛ فلم يكن لها تضاريس الفتيات في سنها، ربما من الهزال نتيجة تنقلها حاملة صحبة من الورد بين السيارات المنتظرة في الإشارة.

تبيع الوردات لمن تجاوره امرأة بداخل السيارة أو للمارة، وتختص منهم من تتأبط ذراعه فتاة، تسير خلفهما بلا كلل ولا ملل حتى ترغم الشاب على أن يخرج حافظته ويلقي إليها ببعض الأوراق النقدية ثمنًا لوردة أو اثنتين ليتخلص منها ويواصل همسات العشق في أُذن فتاته.

أصبح المكان مكانها وألفت وجوه روادها المتكررين بحُكم أعمالهم أو منازلهم الواقعة على هذا الطريق.

منهم من يبعدها فور اقترابها من السيارة وينقدها ثمن إحدى ورداتها وربما بعضًا من عقود الفل يُعلقها حول مرآة السيارة وتبادله ابتسامة طفولية وكلمات شُكر ودعوة (ربنا يفتحها في وشك يا عّم) ومنهم من يرمقها بنظرة زاجرة ويغلق زجاج السيارة قبل

اقترابها منها.

مع مرور الوقت وسعيها بين السيارات والمارة تكونت لديها خبرة من مجرد نظرة إلى وجه السائق هل تقترب أم تولي وجهها عنه وتذهب إلى غيره.

آخر المطاف ترتكن إلى جوار حائط وتخرج من كيس ورقي بضع لقيمات من الجبن الأبيض وفي أحسن الحالات ترافقه خيارة يبدو عليها القِدَم من انكماش قشرتها الخارجية.

كانت أحيانًا تطيل النظر إلى إحدى السيارات وترقب الفتاة الجالسة بداخلها، ترى هل يمكن أن يأتي المستقبل حاملًا الأمل بأن تكون إحدى سعيدات الحظ وتُقدَّم لها إحدى هذه الوردات التي تسعى لبيعها؟!

إنها جميلة الوجه تعلم ذلك من كلمات أقرانها، إنها بيضاء ذات عينين زرقاوين، صحيح أغلب الوقت يلوث وجهها سواد من عوادم السيارات وتُغطِي أصابعها بقايا الوحل من الماء الذي ترشُ به ورداتها فيتحول الماء مع أتربة الشارع إلى أوحال، ولكن ببعض الصابون النابلسي الذي تستعمله الست أم محسن ستصبح كأجمل أميرة، هكذا تحدِّثُ نفسها.

وأم محسن ليست من أفراد أسرتها ولكنها السيدة التي وجدتها تائهة في أحد الموالد، وقامت بإيوائها مع أولادها وأطلقت عليها اسم ياسمين.

كبرت ياسمين وهي لا تعرف لها مأوى ولا أسرة إلا بيت الست «أم محسن» وأولادها محسن وسعاد ونوارة، وكان لكل منهم بضاعة يسرح بها.

محسن: بعض الألعاب والبالونات للصغار، وأيام ماتشات الكورة كان يبيع أعلام مصر والزمالك والأهلي، أما سعاد ونوارة فكانت بضاعتهما هي المناديل الورقية والآيات القرآنية، وكان من نصيب ياسمين الورد ربما لما لمحته أم محسن من لمحات جمال في الصغيرة تجتذب عطف وحنيّة المارة.

كبرت ياسمين واستدارت تضاريس جسدها وأصبحت بحق يشار إليها بالبنان، حينها قررت أم محسن تزويجها لابنها.

على رأيها: «جحا أولَى بلحم توره»، كان الأخير لا يتهاون في ضربها علقة سخنة لسبب أو لآخر أكثرها إن رآها تمازح مَن بالسيارات أثناء بيع الوردات أو عقود الفُل.

لم تكن ياسمين تهوى محسن أو ترغب فيه لكنها كانت أشبه بفأر وقع في مصيدة لا فكاك منها.

استمرت في بيع الورد في الإشارات والشوارع..

تسارعت الأيام وبدأت أم محسن في تجهيز غرفة العرسان، وسرعان ما تم تحديد يوم عقد القرآن. كانت بواكير الصيف قد حلت و خرجت ياسمين والبنات ليسرحن بالبضاعة فغدًا يوم دُخلة محسن وياسمين ولن يتأتى لهن العمل فيه؛ فعليهن بذل الجهد مضاعفًا وانتشرن كل واحدة في اتجاه، وسار النهار بطيئًا حارًا، وفي فترة الظهيرة التجأن إلى مكان ظليل يتناولن فيه ما يقمن به أوداهن.

انتظرت الأختان أن تظهر ياسمين ولكن لا أثر لها، إلى أن أرخى الليل ستائره فعدن إلى المنزل وقد بلغ بهن الشك مداه تُرى هل هربت الفتاة ولم تنطق إحداهن بكلمة وجلسن ناعيات الهم إلى أن عاد

العريس وأمه بعد إتمام الاتفاق مع متعهد الفراشة والـ «دي جي».

دخل محسن والحبور بادٍ على وجهه وأمه تتأوه من آلام ركبتيها من اللف طيلة النهار ليجد الفتاتين في أسوأ حال، نظر إليهما الأخ وسأل : هو فيه إيه مالكم زي اللي واكلين سد الحنك، وفين ياسمين؟

ردت سعاد: إحنا وقفنا استنيناها ساعتين ومابانتش.

رفع يده و صفع أخته بقوة حتى إنها سقطت على الأرض.

- يعني إيه مش فاهم تكون راحت فينهي مصيبة تاخدها.

وبدأ في حالة من الهياج أدت لتكسير محتويات غرفة العرسان وأغلب الأثاث المتواضع للشقة.

وانطلق خارجًا كالإعصار يبحث في كل مكان عن عروسه التي رباها على يديه مثلما كان يتباهى دائمًا أمام السرّيحة رفاقه، وأنها وردة مغمضة ستتفتح بين أحضانه.

انقضت الليلة وتلتها أيام وليالٍ تحدثت فيها الحارة وتناولت الحدوتة بالتوابل والبهارات، منهم من ألقى باللائمة على محسن وعُنفِه مع ياسمين، حيث كانت صرخاتها تصل إلى أرجاء الحارة، كما تكررظهور آثار أصابع كفه على وجهها الأبيض العاجي بشكل متكرر.

وكان للبعض الآخر من أهل الشارع -وبخاصة الفتيات- رأي آخر .

(إن ياسمين مش وِش نعمة ومحسن ده زينة شباب الحي)

ظلَّت السيرة تلوكها الألسن إلى أن مرت فترة وظهرت حكاية

أخـرى مـن حكايـات الشـارع وهكـذا تنتهـي واحـدة لتبـدأ أخـرى.

تزوجـت سـعاد ونـوارة وتغـيَّر نمـط التجـارة فأصبحـت سـعاد تجـول في الطرقـات بطفـل صغـير وروشـتة للـدواء، أمـا نـوارة فألزمهـا زوجهـا بـأن تجلـس لتعـد الشـاي لعـمال البنـاء بجـوار عربـة الفـول الخاصـة بـه.

محسـن تـرك الحـارة بعـد أن شـعر أن هيبتـه انهـارت وسـط أقرانـه مـن الباعـة الجائلـين.

يقـال إنـه أصبـح فتـوة يقـف في أحـد الملاهـي الليليـة مـن الدرجـة الثالثـة يـضرب السـكارى ويدفعهـم خـارج الملهـى.

أمـا ياسـمين فلـم يـدرِ أحـد أيـن اختفـت وكأن الأرض انشـقت وابتلعتهـا

ولكن على نفس الإشارة..

مـن آنٍ لآخـر تقـف سـيارة سـوداء فارهـة تمتـد منهـا أصابـع تزينهـا بعـض الخواتـم الماسـية، تلتقـط باقـة مـن الـورد البلـدي، وتنقـد البائعـة الصغـيرة ورقـة نقديـة بمبلـغ مائـة جنيـه، ثـم تغلـق النافـذة وتنطلـق بأقـصى سرعـة .

تـمَّت

باقة من الدموع

بدأ النهار في الانسحاب مودعًا بختامٍ رائع

قرص مشتعل كجمرة تطفئ اشتعالهاالبرتقالي في أمواج البحر ، بدا المنظر وكأنها لوحة بديعة لفنان مقتدر.

غطاء ضبابي اللون يضفي عتمة على السماء بينما أضاءت «الكلوبات الفيرفورجيه» أعلى الأعمدة المرتفعة لتضفي أجمل منظر لأجمل كورنيش.

إنها الإسكندرية بجمالها وروعتها، ورائحة البحر تدغدغ أنفاس من وقف بيده خوصة أو صنارة الصيد.

يكثر وقوف من يصطاد في هذا الوقت من الغروب لعلَّ الحظ يسعفهم بصيدٍ لبعض البساريا الصغيرة.. ومن يدري.

وهناك من يجلس محدقًا في البحر وهو يرقب غروب الشمس وأغلبهم محبون رجاؤهم أن يكون قرص الشمس الدامي شاهدًا على حبهم، وقد تشابكت الأصابع في حنوٍّ وحنين لأكثر من ذلك.

وعلى الجهة المقابلة للكورنيش اصطفَّت المقاهي وبدأ روادها في الظهور وكأنهم على موعد مسبق، منهم أصحاب،

ومنهم من قادته قدماه إلى هذا المكان للراحة وتناول مشروبٍ أو اثنين مع أنفاس النرجيلة (الشيشة).

تنحنح الجرسون ليوقظ الجالس من شروده فانتبه رجل في أوائل العقد الخامس مع بعض الشيب على جانبي الشعر ورفع بصره متسائلًا:

- نعم؟

- طلباتك يا باشا.

- قهوة مظبوط.

انصرف الجرسون وهو متشكك من منظر الرجل.

فالرجل أنيق ببزته السوداء وقميصه الأبيض كأنه عريس في ليلة زفافه.. ما الذي يُجلِسه ها هنا؟!

أما الرجل فبقي شاخص البصر يرقُب سرعة انسحاب قُرص الشمس بداخل البحر وهو يتمتم بهمهمات لا يسمعها غيره:

- ياه بسرعة كده الدنيا جريت دا أنا لسه كنت موصَّلها المدرسة ومسرَّح لها شعرها ضفيرتين قوام كبرتي يا ست البنات يا أميرة عمري.

كنت عارف إن اليوم ده أكيد جاي بس نسيت ولّا باينّي كان قصدي أنسى، من يوم ما ماتت المرحومة أمك وأنا قفلت الدنيا علينا إحنا الاتنين ونسيت كل حاجة، نسيت نفسي والنَّاس اللي حواليّا ما كنتش شايف غير ملاك صغير متعلقة في رقبتي خايفة ومش عاوزة حد يقرب منها ولا منّي.

أخذتـك جُـوَّه حضنـي ووعـدت أمـك إن ماليـش في الدنيـا غـير أمـيرة بنتنـا.

وعـدَّت الأيـام أسرع مـن رمشـة الجفـن.. كبرنـا أنـا وانـتِ يـا أميرتي بقيـتِ شـابة وكـبرت مخـاوفي، يـا تـرى هيجـي اليـوم الـلي هتفترقـي عنـي وبإيـدي أسـلِّم روحـي لـلي يختـاره قلبهـا.

وقطـع استرسـال أفـكاره حضـور الجرسـون بالقهـوة وكـوب مـن المـاء البـارد، تجـرَّع المـاء دفعـة واحـدة وبـدأ في ارتشـاف القهـوة وهـو لا يـكاد يشـعر بمذاقهـا، وذكـرى يـوم دخلـت عليـه أميرتـه وابتسـامتها تـشرِق وجههـا كـشروق الشـمس. ارتمـت بحضنـه وهـي تقـول دونـما أن ترفـع عينيهـا لوجهـه:

- بابـا حبيبـي، في واحـد عـاوز يجـي يقابلـك اسـمه يحيـى أخـو واحـدة زميلتـي في الكليـة وهـو دكتـور.

بهـدوءٍ شـديدٍ رفـع ذقنهـا بيـده لـيرى وجههـا وكأنـه يراهـا اليـوم لأول مـرة مـن عشريـن سـنة، حائـرًا مـن كـم المشـاعر المتلاطمـة بداخـل نفسـه.. مـا هـذا الـذي أسـمع صغـيرتي؟ المراهقـة المشاكسـة، والشـابة العنيـدة. نظـر إليهـا وعيناه تعتريهـا نظـرة غامضـة وانسـحب إلى داخـل غرفتـه وأغلـق بابهـا عليـه واتجـه إلى صـورة زوجتـه الراحلـة ولسـان حالـه يسـأل: أيـن ذهبـت وتركتنـي، مـاذا أفعـل؟ الخـوف يعتـصره.. هـل أسـلمها لغريـب؟ مـاذا لـو لم يكـن يسـتحقها أمـيرة عـلى إمارتـه؟ مـاذا ومـاذا ومـاذا لـو؟

لم يغمـض لـه جفـن تلـك الليلـة، قـضى ليلتـه وهـو يقلـب في صـور الأمـيرة مُـذ كانـت تتعلـم المـشي هنـا صـورة وهـي تتعلـم كيـف تربـط

عقدة حذائها وصورة لها في حفلة تنكرية في زِيّ أرنب و العديد من الصور أيام كانت تبدل أسنانها اللبنية ثم صورة حفل التخرج من المدرسة الثانوية، ومنها صور في المصيف وهو يعلِّمها الطفو فوق الماء.

يا له من زمن انقضى.. قضى ليلته جالسًا دون أن يشعر بمرور الوقت إلا عندما سمع طرقاتها على الباب وصوتها ينادي بِرقّة: بابا انت صحيت خلاص؟

أجابها: ادخلي يا أميرة.

دخلت على استحياء وهي تبتسم: مش هتفطر معايا يا بابا، أنا جهزت لك الفطار اللي بتحبه.

قالتها وهي تطبع قُبلة صغيرة على جبينه.

– اسبقيني انتِ وانا هاغسل وشي وآجي نفطر مع بعض ونتكلم.

وكانت هذه هي الكلمة السحرية التي تتلهف لسماعها.

بدأت أميرة في الكلام دون توقف، شرحت لوالدها كل شيء، ما توقعه وما لم يكن مستعدًا لسماعه .

وبدا أن خارطة الطريق وُضعت أُسسها بين الحبيبين. وخلال فترة وجيزة تم التعارف بين الأسرتين وبدأت الخطوات تأخذ منحى أسرع، وبرغم كوّن أمير الأحلام حظى باحترام الأب وحبه إلا أن ذلك لم يخفِ بعضًا من مشاعر الغيرة من الأب على أميرته مهما حاول مجاهدة نفسه.

وفجـأة رِن الموبايـل، وظهـرت صـورة الأمـيرة عـلى الشاشـة، ووضعـه عـلى أذنـه قائـلًا: أيـوة يـا أمـيرة بابـا.

ردت قائلـة: إنـت فـين يـا بابـا النـاس جـت والمصـور وصـل وانـت لسـه ماجبتـش بوكيـه الـورد ولا جيـت؟

أزاح دمعـة كادت تسـقط مـن العـين قائـلًا: حـالًا يـا حبيبتـي أنـا في الطريـق.

وأغلـق الموبايـل ووضـع الحسـاب مـع بقشـيش سـخي للجرسـون، وقـام يلحـق بأجمـل ليلـة في عمـره، ليلـة تنصيـب الأمـيرة عـلى عرشـها الجديـد.

تـمَّت

❁❁❁

حدث ذات أصيل

على ضفاف النيل الجميل قارب صغير يتهادى على صفحته، ينبعث من راديو صغير ملقى في أحد الجوانب صوت المقدمة الموسيقية لأغنية كوكب الشرق أم كلثوم «لِسَّه فاكر» يا لها من تركيبة تثير في النفس الشجن؛ وقت الأصيل، وانسياب النيل بلونه القاتم وصوت الست.

جلس النوتي العجوز في المؤخرة ممسكًا بدفته هو يسترق النظر من آنٍ لآخر إلى ضيوف قاربه؛ فتى و وفتاة تماثله في السن تقريبًا، قد أسندت رأسها الصغير على الكتف القوية، بينما تعانقت الأصابع مؤكدة مدى ما يشعران به.

ابتسم الملاح بداخل نفسه متمتمًا وكأنه يهمس لقاربه كم شهدنا من عشق العشاق، تنفسنا معهم عبير الحب ونحن نجول بهم أرجاءك يا نيل، و كم شهدت من قصص كُتبت بأصابع تخللت مياهك الطيبة.

ارتفع صوت الشاب يسأل: متى نصل جزيرة الدهب؟؟

ردَّ المراكبي بصوت أجش: حبة ونوصل يابيه.

قالها وأخرج من داخل جلبابه لفافة تبغ أعدها مسبقًا، أشعلها وأخذ نفسًا عميقًا زفره بأسى محتقن وهو يصارع ذكريات وملامح وجهٍ لم ينسه يومًا.

بهية وهي بحق أبهى البنات..

رآها يومًا فوقع القلب في أسر الجميلة

تعدو لتلحق بالمعدية رفعت جلبابها المزخرف خشية ابتلاله فكشف عن خلخال فضي يطوق الكاحل الجميل.

ضبطته بالجرم المشهود فأرخى عينيه وهو يدعو الله أن تسامح وتسمح له بنظرة إلى الوجه المليح والعين الكحلي.

كان وقتها شابًا غضًّا في بواكير الشباب أخضر الشارب، ينقل الأفراد بالمعدية بين ضفتين وأحيانًا أخرى ينقل أفرادًا بصحبة بعض البهائم.

أصاب سهم الحب قلبه وملكت المليحة فؤاده. كان يترقب خيالها من بعيد علَّه يفوز منها بمجرد نظرة، إلى أن فاجأته يومًا بابتسامة جزلا أظهرت أجمل طابع حسن.

عرف يومها أن تلك الابتسامة هي إشارة السماح والقبول.

ما أحلى النهار؛ فهو بوابة الأمل لرؤية المحبوبة، و يا لي من أحمق أهوى أخشابك المتهالكة أيتها المعدية، فقد وطأتها أقدام ست البنات.

كان يعيش النهار على أمل اللقاء، و ينتظر الليل محدقًا بالنجوم، ينسج منها مسرحًا للقاء.

لم يجمع بينهما إلا النظرات المختلسة من آنٍ لآخر تثلج شِغاف القلب

الملهوف. إلى أن كان يومًا ما، وبينما هو جالس في انتظار المرتحلين بين الضفتين، سمع ضجة فتيات تتراوح بين الغناء والطبل والزغاريد، بدأ المشهد يكتمل.. إنه شِوار عروس يُنقَل للضِفة الأخرى.

بدأت الأعداد تتزايد واقتربت معها الضجة وضحكات الفتيات، يالها من بهجة تدغدغ القلب وتثير الفرحة في النفوس..! ابتسم ابتسامة كبيرة ولسان الحال يقول: «بشرة خير».

باقتراب الموكب غاصت الابتسامة في الأعماق، رأى المليحة وقد تزينت وتحلت بالذهب وبجلباب مزركش بالقصب، أرخت نظرها وتحاشت لقيا العيون.. رفعت طرف جلبابها للصعود فتراءى له بريق خلخال ذهبي على شكل ثعبان يلتف على الساق يكاد يسحقها.

علم يومها أن ما نسجه من أحلام ما هو إلا وهم تملكه وأطاح به أسفل سافلين.

من يومها لم يرَه أحد في القرية وكأنما لم يكن أصلًا..

رحل الفتى، سافر إلى حيث أخذته قدماه، ولكنه كان يعلم أن مكانه إلى جوار المارد الأزرق الطيب يرتشف منه رشفة يبرد بها قلبه فربما مر الماء الرقراق إلى جوارها وهي تدلي بزلعتها تملؤها، ربما لامس أصابع قدميها وهي تغسل بعض الأواني.

عاش على الأحلام، امتد الشيب إلى الشعر والشيخوخة للجسم وما زال يرى في كل حبيبين خيال من قصته.. يحيا معهما، يحلم بيوم آخر وحب جديد وقصة أخرى بلا نهاية.

تمَّت

حلم في زمن الحقيقة

كان أحد أيام شهر فبراير، حرارة الشمس ناعمة جميلة تلقي ببعض أشعتها على مجموعة كبيرة من الفتيات خرجن للقيام برحلة نصف العام من القاهرة إلى الفيوم. أسرار بحيرة قارون تناديهم في بهجة بعد انقضاءامتحانات نصف العام الدراسي في كلية البنات.

اجتمعن في محطة الجيزة، أكثر من خمس عشرة فتاة، تعالت الأصوات بضرورة الالتزام بالهدوء حتى يتم إحصاء كامل العدد مخافة أن يتخلف أحد من رواد الرحلة.

أعطت المشرفة التمام تحرك الأتوبيس كأن به زارًا من صرخات الفتيات بين من تصفق ومن تغني ومن تتحرك هنا وهناك لتوزيع الساندويتشات وعلب العصير.

انطلق الأتوبيس العجوز يتمايل مع الأغنيات.

وحدها كانت ترقب الموقف بسعادة صامتة لم يسبق أن كان مسموحًا في عُرف الأسرة بإطلاق الضحكات، أما الابتسامة فكانت بحساب لم يكن مسموح لبريق الأسنان أن يظهر من الشفاة الوردية.. سعادتها تفوق سعادة فرخ طائر نجح في الطيران من

عشه للمرة الأولى، لكنها سعادة يشوبها الخوف دائمًا..

الخوف قاسم مشترك في كل مشاعرها..

وافق الوالد بصعوبة على السماح برحلة خارج إطار الأسرة، وخلف بوابات الكلية، بعد تعهد شديد من الأستاذة المرافقة -وهي صديقة قديمة للأسرة- بتمام الانضباط والالتزام.

ناولتها صديقتها ساندوتش مربى بالزبدة، وعلبة عصير برتقال قائلة:

- خدي يا بنت اتغذي كويس، إحنا رايحين نحارب في الفيوم.

ابتسمت الأخيرة وتناولت منها الوجبة هكذا عرفت أحب صديقاتها بل قد تكون الوحيدة التي ارتاح لها قلبها منذ رأتها أول يوم في الدراسة.

دخلت لأول مرة تسأل عن مكان شئون الطلبة، لمحتها تلك الفتاة ذات الغمازتين الشقيتين رمتها بنظرة فاحصة، رفعت حاجبها مستنكرة وقالت: إنتِ مالك خايفة كده ليه ما حدِّش هياكل منك حتة، تعالي معايا. وانساقت وراءها.. وما زالت حتى هذه اللحظة. كانت تلك الفتاة قوية الشخصية، هي الصديقة والناصحة الخبيرة وكاتم الأسرار، وأحيانًا المدافع في حال ما حاولت إحدى الزميلات مضايقتها لسبب أو لآخر.

شعرت الأخرى بخبرة تسبق عمرها لحظة وقعت عينها على الفتاة التي تكاد تتعثر في خطواتها ونظراتها التائهة كصغير اختفت أمه في الزحام. أسرعت إليها تهدئ من روعها وبيد قوية أعطتها الأمان المنشود.

كانت هذه بداية صداقة دامت سنوات الدراسة التي قاربت على النهاية؛ فهن الآن في إجازة نصف العام من السنة الأخيرة .

هتفت بها قائلة: ما تفُكي بقى يا بنتي خلاص إحنا بَرَّه حدود القاهرة، ومافيش حد معانا، اضحكي وانبسطي.

بادلت صديقتها نظرة مؤنبة وهي تشير بطرف العين محذرة إلى مشرفة الرحلة.

ردت صديقتها بقوة: وهي مالها بيكِ، إنتِ عملتِ حاجة؟ دا انتِ حتى لسّه ماخدتيش قطمة من الساندويتشات اللي قمت من الفجرية أعملهم عشان أغذيكِ، يا شيخة سيبك سيبك هي يعني ماوراهاش غيرك تكتب عنه تقارير للوالد. تنهدت الفتاة تنهيدة المحبوس في قفص بلا أمل في الفرار..

«هكذا هي الحياة في عالمي» قالتها في نفسها

منذ الطفولة كانت توجيهات الأب والأم بقائمة طويلة من الممنوعات:

«ما نضحكش بصوت عالي، الابتسامة بالعين لو سنانك بانت وانتِ بتضحكي تبقي قلة أدب. ما فيش حاجة اسمها أصحابي، إنتِ ما تعرفيش البنات دول اتربوا ازاي. مواعيد الأكل مقدسة والأكل يتاكل حتى لو مش عاجبك ،مافيش حاجة اسمها أسمع المطرب الفلاني ولّا المغنية العّلانية. مواعيد النوم محددة، ما فيش حاجة اسمها ألبس على الموضة، ماما هي اللي تنقي اللبس وانتِ تلبسي. حتى الأفلام العربي القديمة عليها بعض المحاذير للحظات الرومانسية. الوالد هو من يختار نوعيات القصص التي يُسمح لها بقراءتها ..

على هذا نشأت وترعرعت شخصًا بلا هوية، ظل للوالدين ولكنه ظل باهتًا غير واضح لا يكاد أحد يلقي له بالا كأنها خيال.

حتى في مجال الدراسة فرغم أنها كانت تعشق الرسم وتهرب به إلى حياة خاصة بها وحدها، إلا أن الوالد اختار كلية التربية للبنات مقرًّا للدراسة بدلًا من فنون جميلة وهي كعادتها مستسلمة فهي لم تعرف سوى الاستسلام والطاعة.

قد تكون تلك الصديقة الحميمة هي الاختيار الوحيد الذي قُدّر لها التمسك به.

أفاقت من أفكارها على ضجة عرفت منها أن الأتوبيس وصل إلى محطته وهن الآن في الفيوم أمام الفندق المُزمع الإقامة فيه.

تم التسكين وتشاركت الصديقتان الغرفة الصغيرة المطلة على البحيرة الهادئة. بسرعة رتبا الأمتعة في الدولاب، وفتحت إحداهما الشيش الخشبي المتهالك، على مصراعيه، صائحة:

- يلّا بقى خلينا نشوف الدنيا.

ووقفت الفتاتان تنظران للبحيرة الساكنة وبعض مراكب الصيدالشراعية الصغيرة متناثرة هنا وهناك، تعالت ضحكة رجالية قوية لشاب استرعاه ارتطام فتح الشيش بقوة، ونظر إليهما معتذرًا وهو يبتسم قائلًا: آسف جدًّا ما قصدتش التصنّت ولكن صوت حضرتك وصل للبر التاني.

ابتسمت الفتاتان بخجل واستدرك الشاب قائلًا: بيتهيألي الدنيا فيها أكتر بكتير من بحيرة قارون عشان تكوني شُفتِ الدنيا.

كان يتحدث وعيناه تتفحصان ملامح فتاتنا الرقيقة، أما هي فأسرَتْها نبرة صوته الأجش.

وانتهى الحوار بإيماءة من رأسه وبدأ بلم معداته: من حامل لوحات، وكرسي يُطوَى، وصندوق خشبي مستطيل له مقبض ألقى فيه ببعض فرشات الرسم. وحمل أغراضه ورحل.

كان أسمر اللون، وعندما قام من كرسيه ظهر فارع الطول، متناسق رياضي البنية.

نظرت الفتاتان لبعض وابتسامة خجلى على الوجوه. وبسرعة استعدت الفتاتان ببعض الملابس القطنية وأحذية خفيفة تتناسب وجو الرحلة. ومع صافرة المشرفة وقفن الفتيات جميعا في انتظار الإرشادات.

- إحنا دلوقتي رايحين وادي حيتان كل واحدة تجيب معاها المية والأكل بتاعها عشان لو جاعت، وما فيش لازمة أفكركم بوجوب دخول الحمام قبل ما نطلع.

ركبت الفتيات سيارات دفع رباعية للتنتقل بهن في صحراء الوادي.

استمر بهن النهار إلى أن عادوا وهُن في أشد حالات الإرهاق، وانتهت كل منهن إلى سريرها وسرعان ما تعالت الأصوات ما بين غطيط وشخير.

أصبح الصباح وقامت الصبية الرقيقة مسرعة إلى الشيش تفتحه وفي النفس أمنية مختبئة أن تراه في موقع الأمس، واتسعت ابتسامتها..

وأخيرًا ظهر خيال ابتسامة فوق الوجه الجميل، فاجأتها الأخرى

قائلة ثم تابعت : إيه اللي جرى في الدنيا طالعة علينا بصف سنانك اللولي على غيار الريق ليه خير ان شا الله... وقبل ان تتابع الكلمات وقع نظرها على فتى الأمس .

– الله الله الله دي بركات بحيرة سيدي قارون ولّا إيه.

تلعثمت الثانية بخجل: قصدك إيه أنا بس بهوي الأوضة.

– وهي كانت اشتكت لك يلّا البسي عشان نلحق الفطار.

سارعت الفتاتان بالنزول للتجمع وتناول الإفطار وقد قررت المشرفة اليوم أن يذهبوا في رحلة بالمركب في البحيرة، تليها جولة حرة في أنحاء المكان وزيارات لبعض ورش صناعة الفخار.

ركبت الفتيات المراكب الشراعية ودوت ضحكاتهن الصافية تطرد الهموم، حتى الأستاذة خلعت قناع الحزم وعاشت لفترة وجيزة بلا قيود تستعيد شقاوة ومرح عمر مضى مع فتيات في عمر الورد كانت هي إحداهن منذ زمن.

كأن الوقت تجمد على لحظات حلوة بلا هموم.

عادت المركب ونزلت الفتيات للجولة الحرة حتى الأستاذة، فقد كان اليوم أجمل من أن تدعه يهرب منها في أوامر ونواهٍ واستأذنت الفتيات في أن تلجأ لبعض الراحة.

لأول مرة تشعر الفتاة أن هناك مجهولًا يناديها في البقعة المباركة تحت الشباك، فسارت ودقات قلبها تكاد تخترق أذنيها.. ما الذي أنتِ بصدده أيتها الفتاة.. هكذا كانت تصرخ عليها أنفاسها ولسان حالها يقول: لا أدري!

إلى أن رأته أمامها بلوحته وفرشاته بيده يضع رتوشًا على رسم قارب ملقى على جانب تحيط به الرمال وبقايا شبكة من خيوط ممزقة تفترش قاعه.

رفع نظره إليها وابتسم قائلًا: كل ده تأخير؟ أنا مستنيكِ من بدري لحد ما أخدت ضربة شمس.

بابتسامة خجلى اقتربت رويدًا رويدًا، ثم جلست على الرمال واضعة ركبتيها تحتها.

أي قوة تلك التي تشدني إليك أيها الفتى الأسمر؟!

اقترب منها مادًا يده.. فلان الفلاني رسّام طبيب..

ضحكت قائلة : ازاي كده؟

- ببساطة أنا دكتور أنف وأُذُن في أجازة طويلة لممارسة حبي الأول والأخير: الرسم. الطب بالنسبة لي شهادة، بس الرسم هو الحياة. إنتِ بقى إيه حكايتك؟

بدأت بالكلام وصوتها لا يكاد يُسمع فبادرها: لأ أنا ماعنديش استعداد أبدأ أعالج وداني، أنتِ عليّ صوتك حبة نوصل لحل وسط .

ابتسمت وبدأت في الكلام.. ولم تتوقف.. كأنها عاشت عمرًا بأكمله تحتفظ بحياتها مخبأة كي تبوح له بها. قاربت الشمس على المغيب وهما على نفس الحال وهالة خفية من السكون تحيط بهما وتمنع أيًّا كان من اختراق حلم السعادة الجميل.

وفجأة.. انطلق صوت صديقتها من الشباك: يلّا ياهانم غلبت

أداري عليكِ من بدري وأقول إنك نايمة.. هو النايم ده مش بيجيله وقت ويصحى؟

فأشارت لها أن قادمة واتفقا أن تُعيدا اللقاء في الغد.

وكانت الزيارة المحددة لليوم التالي هي زيارة شلالات وادي الريان.

وتصنعت إصابتها ببرد في المعدة لتتهرب من الزيارة وقد حدث ما خططت له، وبعد أن أدلت صديقتها بدلوها.. كيف أنها لم تستطع النوم من صُراخ رفيقتها وألم معدتها..

انطلقت الرحلة، قامت الفتاة نافضة عنها الغطاء وأسرعت للقاء فتاها الأسمر.

تنزها في أنحاء المكان، حكى لها عن نفسه وإخوته، حلم والده بكون أكبر أولاده طبيبًا ينتهج مسار الوالد، والأم سيدة المجتمع الأنيقة وحتى المربية التي ربت والدته، ثم ربته هو وإخوته وبقيت معهم واحدة منهم.

وبدورِها تكلمت واستفاضت عن طبيعة أسرتها، وأنها وحيدة أبوين يخافان أن يلمس الهواء أطراف جدائلها؛ لذلك كانت محاصرة طوال عمرها بوضع خانق كتم رغباتها، أحلامها وحتى شخصية تمنت لو أنها عاشتها.

واستمر الحديث إلى أن تنبهت أنه حان أوان العودة لمتابعة الدور الذي رسمته والاستلقاء في براءة في سريرها.

عاد الجميع إلى الغرف، أسرعت صديقتها تطلب التفاصيل، حكت لها وقلبها تتنازعه مختلف المشاعر :

- هاشوفه بكرة قبل ما نركب الأتوبيس أودعه.

استلقت الفتاتان، إحداهما تغط في نوم عميق، أما الأخرى فقد جافاها النوم، وانساب الدمع من العين بهدوءٍ.. كم قصير زمن أحلامنا! بقيت على حالها من السهاد إلى أن طلع النهار، أسرعت في إعداد حاجياتها ثم انسلت خارجة لتودع فارس الحُلم.

ذهبت لموضع اللقاء وانتظرت ولكنه لم يحضر، طافت عيناها تجوبان البَر في قلق.. أفاقت على يد الصديقة وهي تسحبها بحنوٍّ أم تربت على طفلتها: يلّا بينا خلاص حان وقت الرحيل.

عادت أشد هدوءًا، شحَّت البسمة على الوجه ،انطفأ بريق العين الذي ظهر فجأة، ومرت الأيام أبطأ بلا حياة.

وانتهى العام الدراسي وظهرت النتيجة المتوقعة؛ نجحت بتفوق لكن دونما فرحة استلمت عملها كمُدرِّسة رسم في إحدى المدارس الدولية، وسارت بها الأيام على نفس الوتيرة.

نهاية يوم دراسي كسابقه. عادت إلى المنزل مرهقة، سارعت والدتها باستقبالها على الباب وجرتها جر إلى غرفتها وأغلقت الباب.

- في إيه يا ماما عايزة إيه بس أنا تعبانة؟

ردت أمها:

- خشي حالًا اغسلي وشك والبسي فستان حلو كده وشوية أحمر في خدودك عندنا ضيوف.

- يا ماما أنا مهدودة عاوزة أرتاح.

- مافيش راحة اعملي اللي بقولّك عليه وحصّليني على الصالون.

استسلمت لأوامر الأم..

بعد بضعة دقائق كانت تدخل الصالون لتلاقي وجهًا أسمرَ جميلًا له في القلب محبة وغصة في آنٍ واحدٍ. بهدوء قام الشاب لتحية الفتاة مادًا يده، معرِّفًا بنفسه: الدكتور فلان الفلاني طبيب رسّام..

تمَّت

❋❋❋

مفترق طرق

كانت الصدفة وحدها من جمعتهما عند ذلك الكشك الذي يقع على مفترق طريق كلٍّ منهما. أوقفت سيارتها ونزلت لشراء بعض السكاكر وعلبة سجائر ولمحته واقفًا يقلب في الصحف الموضوعة وناولها البائع الكيس بما طلبت ولكنه اعتذر منها قائلًا: «معلش **مفيش فكة**».

أدارت رأسها نحو الواقف عند الصحف، واقتربت منه بهدوء قائلة: صباح الخير ، ألاقي مع حضرتك فكة؟

استدار ليواجهها وعلى وجهه ابتسامة جميلة قائلًا: صباح النور، أشوفلِك .

أخرج المحفظة وعبث بداخلها ثم ناولها المبلغ المطلوب وهو ينظر إليها: اتفضلي.

شكرته ونقدت البائع الثمن وانطلقت بالسيارة.

قادت السيارة متجهة إلى حي الحسين وبالتحديد إلى شارع المعز لدين الله الفاطمي؛ حيث كان من المفروض أن تلاقي المجموعة المقرر لها أن تلاقيهم لرحلة إرشاد بداخل أروقة القاهرة الفاطمية.

علَّك علمت الآن عزيزي القارئ..

بطلة القصة تعمل في مجال الإرشاد السياحي.

فتاة أربعينية، هادئة بلمحة رزانة، ووجه مريح متناسق القسمات وبسمة تخترق قلب من يراها.. ولدواعي الخصوصية سنطلق عليها (ع).

عاشت (ع) في أحد أحياء مصر الجديدة ، في إحدى العمارات السكنية القديمة بملمح عراقة زمن مضى. أمضت أغلب حياتها ما بين الدراسة والسفر وعملها الذي عشقَتْه.

كانت تشعر كلما قادت مجموعة من السياح أو حتى المصريين القادمين من الخارج أنها روح التاريخ هي من بيدها مفتاح بوابة الحضارة والقائمة على ترجمة رموزها القديمة لكل عاشق للتاريخ.

كان التميُّز هو أحد سمات عملها والإجادة في خلق علاقات صداقة مع جميع أفراد المجموعة وتلبية كافة التساؤلات، وبعض الطلبات التي قد ترافق التحركات أثناء الجولة من مساعدة السيدات لشراء بعض الهدايا التذكارية بسعر مناسب بعد وصلة فصال مع البائع حتى يعود الجميع من الجولة وقد ارتسمت على وجوههم علامات الرضا والسعادة.

كان اليوم هو اليوم المخصص لزيارة معالم القاهرة الفاطمية أو قاهرة المعز.

كانت من أجمل الزيارات، لم تكن تكتفي أبدًا من روعة المكان، كان لها من القدرة على نقل تلك الروح الجميلة للفوج المرافق لها.

بعد انقضاء النهار تختتم الزيارة بوقفة للراحة في إحدى المقاهي الشهيرة لتناول الشاي بالنعناع والحصول على بعض الصور لمعالم المكان، ومن ثم عودة المجموعة للأتوبيس الخاص بهم على وعد اللقاء في اليوم التالي لزيارة المعالم السياحية في منطقة مصر القديمة.

عادت إلى منزلها والإرهاق يبلغ منها كل مبلغ؛ فما كان منها إلا أن تناولت الـ «بشكير» بعد أن ألقت بملابسها على الأرض ودخلت لتحصل على حمام دافئ يمحي آثار إرهاق اليوم.

خرجت وقد أشرق وجهها بالراحة وسكبت لنفسها كوبًا من الشاي الساخن وإلى الشرفة وسط أحواض الزهور التي تزرعها بيديها، عادت إلى ركنها الجميل مع صوت الرائعة فيروز تشدو «أهواك بلا أمل».

نهار جديد

استعدت للنزول..

لم تنس أن تتوقف عند الكشك، ولوهلة وجدت عينيها تتجهان إلى ركن الصحف الفارغ، إحساس غريب سرى بها للحظة ثم تناولت ما اشترته وعادت لسيارتها.

وبدأت الجولة السياحية..

بدأت الرحلة بزيارة جامع عمرو ابن العاص -أقدم الجوامع في أفريقيا وأول جامع في المحروسة- ثم انتقلت بالفوج بعدها لزيارة الكنيسة المعلَّقة.

وأثناء الإعداد للدخول اصطدمت (ع) دون أن تقصد بأحد الأشخاص،

وحينما التفتت لتعتذر منه، وجدته أمامها.. وجه تعرفه، ولوهلة تذكرت تلك النظرة الجميلة.

«إنه أنت» قالتها في سرها ابتسم لها ابتسامته الجميلة قائلًا : رُب صدفة خير من ألف ميعاد. بادلته الابتسامة قائلة: صدفة سعيدة.

ردَّ قائلًا: أتبحثين عن فكة هنا أيضًا؟

ردت: لا الفكة كتير ، إنه العمل، فأنا مرشدة سياحية، هل ترغب في الانضمام للفوج وشرح مفصل مجاني، أقل واجب.

ضحك ضحكة حلوة وردَّ هو: من دواعي سروري.

بدأ الفوج السياحي يتحرك في أرجاء المكان، كانت تتناول كل تفصيلة تشرحها بدقة الخبير، وتنتقل من مكان لآخر وعيناها لا تفارقانه وهو يتابعها.

انتقلا من الكنيسة المعلقة إلى المعبد اليهودي (كُنيس بن عزرا) ثم المغارة التي أقامت بها العائلة المقدسة أثناء هروبها لأرض مصر في كنيسة أبي سرجة.

وأثناء فترة الراحة تقدَّم لها يحمل زجاجة مياه غازية وكيسًا من الشيبسي، وناولها إياها قائلًا:

- كلي حاجة إنتِ من الصبح ما قعدتيش.

تناولتهم منه شاكرة بكل بساطة وقالت:

- إنت ابن حلال، أنا فعلًا هاموت من الجوع.

جلس (ن) إلى جوارها وامتد الحديث بينهما طويلًا جميلًا كان واسع الأضطلاع في العديد من المجالات، شخصية مرحة شعرت بسعادة لم تشعر بها من زمن طويل وتمنت لو يتوقف الزمن ولا تنتهي الرقفة، ولكن حان موعد العودة.

امتدت اليدان للسلام على وعد بلقاء آخر، لمحت عيناها رمزًا أزرق مصبوغًا أسفل كف يده على شكل صليب فارتجفت يدها وغامت العينان مع إصرارها على ثبات الابتسامة على الوجه، وصدر صوتها مرتعشًا يرسم مرحًا زائفًا : إلى صدفة أخرى عند ركن الصحف طلبًا للفكة.

عادت إلى منزلها واجمة بقلب ثقيل. رمت الملابس على الأرض واصطحبت الـ «بشكير» إلى الحمَّام.. خرجت وقطرات دموع مختلطة بقطرات ماء شعرها المبلل، وسكبت لنفسها كوبًا من الشاي الساخن وصوت شدو فيروز يتغني أهواك بلا أملِ .

تمَّت

❋❋❋

قطعة من السكر

لطالما كانت هادئة قنوعة لم تكن المشاكسة من طبعها ، جاءت إلى الدنيا بسلاسة ودونما ضجة، أحبها كل من رآها ، كانت مليحة بوجه منحوت ينم عن أصالة المحتد.

عاشت بين اللون الأخضر يمد عيناها ذات النظرة الجميلة بالرضا والسعادة.

كانت حرة كما بدا لها، تطلق ساقيها للريح تسابقها والريح بدورها تداعب خصلات الشعر الناعم يتطاير ذات اليمين واليسار، أسود بلون الليل البهيم كم كان لونه مثيرًا للإعجاب، فاحم السواد، لامع.

شبت يخطب ودها الجميع، ولكنها لم تَر من هو جدير بامتلاك روحها غيره؛ فارسها الأسمر، وخيّالها الجميل، كبرا معًا، لم يكونا يفترقان إلا عندما تحين ساعة النوم.

في طفولته كان يغافل الجميع ويلتقي بها ليلًا، حاملًا معه ما لذَّ وطاب من السكاكر التي تحبها، وكانت تبادله الشكر ببريق الحب والعرفان يتلالأ من العيون الرائعة.

كم كانت الحياة جميلة..

أصبحت في ريعان شبابها، كما أصبح الفتى شابًا بهيّ الطلعة، وحان وقت سفره ليتابع دراسته بالخارج، وحان موعد الفراق.

ذهب لوداعها..

كانت تعلم أنه سيغادرها رأت في وجهه الحزن فبادلته النظرة وبريق عينيها الواسعتين يمتزج بدمع متحجر يخبره أنها ستظل بالانتظار لن تمسها يدٌ أخرى، أبدًا لن تكون لسواه..

غاب عنها واختفى من العينين ذلك الوهج الذي طالما فتن الناظرين إليها.

ومرت الأيام، تلتها سنوات طوال عاشت على العهد، فلم يستطع أحد الاقتراب منها، وبدأت علامات الزمن تنال منها فلم تعد مطمعًا لأحد، تكتفي بأن تسمح للصغار أن يشاكسوها وتقبل منهم قطعًا من الحلوى تذكِّرها بمن رحل.

إلى أن كان يومًا ما لم تستطع الوقوف مجددًا..

ولم تفلح المحاولات لإعادتها لسابق عهدها، استدعوا لها طبيبًا من أهل القرية كان في زيارة لأسرته، وعندما دخل إليها سرت في الهواء رائحة محببة تعرفها تمام المعرفة، اقترب منها وجلس بجوارها وتلاقت النظرات، وبحنوٍّ جميلٍ، وضع يده على جبهتها، وبصوت محبب همس إليها: «كم أوحشتني، ولكنها الدنيا أخذتني في دروبها»، وفتح كفه عن قطعة من السكر مخبأة كما كان يفعل سابقًا فتناولتها شاكرة، وذلك البريق الخافت في العين يخبو..

آن أوان الرحيل لقد عاد إليها خَيَّالها ليودعها الوداع الأخير، صهلت بأقصى ما يمتلك الجسد العليل من قوة وأسلمت الروح راضية بعد أن رأته عيناها للمرة الأخيرة.

تمَّت

لحظات بين الواقع والخيال

أفقت من شرودي على صوت تلك الفتاة اللطيفة سكرتيرة العيادة: اتفضلي الدكتورة في انتظارك.

انتزعت نفسي من أفكاري انتزاعًا وأنا أتناول حقيبتي وأغلق الموبايل حسب تعليمات المكان، لم تكن تلك الزيارة للعيادة النفسية هي الأولى بل كانت الثالثة.

كنت أشعر برهبة شديدة كلما وطأت قدماي ذلك المكان بالرغم من الديكور الهادئ والموسيقى الناعمة التي تسري في أرجائه، ورائحة زهرات الزنبق الأبيض في تلك المزهرية الشفافة التي تفوح في أرجاء المكان وتضفي عليه إحساسًا بالتناغم والراحة النفسية.

لكنه الخوف.. الخوف غير المبرر الذي أشعر به كلما أغلقت خلفي ذاك الباب الأبنوسي الرائع.

ابتسامتها المريحة أول ما استقبلني، وسؤالها الذي يتبع تلك الابتسامة: يا ترى إيه أخبارنا الإسبوع ده؟

وأردّ: الحمد لله أحسن كتير ، النوم تحسن ونوبات الهلع أقل.

الطبيبة: جميل الحمد لله، ارتاحي.

أخذت موقعي على الكرسي الوثير، ودخلت السكرتيرة بكأس الليمون المثلج، وضعته أمامي وخرجت وأغلقت خلفها الباب.

بدأت أرتشف الليمون وأنا سعيدة ببرودته؛ فقد كان حلقي شديد الجفاف دونما سبب يُذكَر، وبعد أن أنهيت المشروب قامت من أمام المكتب وجلست في مواجهتي قائلة:

- سنتابع من حيث توقفنا المرة السابقة، استرخي تمامًا مع تنظيم النفَس لعدة مرات للوصول إلى حالة لطيفة من الاسترخاء التام وإرخاء الجفون.

كانت تصل إلى أُذني أصوات تشبه تلك التي نسمعها في المعابد الآسيوية حين ينساب الهواء فيداعب الأجراس المعلقة على مداخلها، إنها لطيفة ذات جرس ناعم.

وبدأت تتحدث بصوت خافت مريح: سنعود إلى ذلك اليوم احكِ لي تفاصيل ذاك النهار حتى نهايته.

وبدأ الكلام..

كنت أسرد لها حتى دون أن تسألني، كان الكلام يسري دون مجهود وأنا أستحث ذاكرتي حتى لا أفقد منها أي تفصيل، انسابت الصور أمامي تحمل كل وجعي.

حذائي الذي انسل من قدمي وأنا أجري عندما خرجت تلك الكلمات البغيضة من ذلك الطبيب أعمى الوجدان..

أشار إلى الممرض قائلًا: اصطحبها إلى حيث المتوفاة التي أحضروها منذ قليل.

ما كان يفوح من عطرها لم يفارق ملابسي، وما كنت أرتديه ونالَه ما نالَه من الزبد الذي سال من فيها.. لون تلك الغرفة

البغيضة، حتى التمتمة بنفسٍ لا ينقطع ولا يلهث وكأنه شريط تسجيل وأنا أحمل تلك الرأس الحبيبة أضمها إلى صدري:

- قولي ورايا يا ماما أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

أنا عارفة إنك سامعاني هو ده آخر كلام هقوله و لازم تسمعيه.

لبِثتُ مدة لا أعلمها وأنا على تلك الحال إلى أن وجدت ذراعيٌ خالتي تحيطني قائلة: يكفي هذا يا ابنتي سمعتك وانتهى الأمر.

وبدأت الأصوات تأتيني متقطعة وألمح خيالات لأشخاص أشعر كأنني أعرفهم ولكنني لا أدري من هم.

لم يتعالَ صوتي ببنت شفة.. مجرد دمع منُساب بلا صوت.

أخذت تلك النبرة تنساب حانية تربت على أعلى الكتف، يكفي هذا أفيقي.

سلمى أنتِ هنا بأمان انتهى كل شيء..

ووجدتني أفتح العينين الثقيلتين وأنا أرى أمامي خيالًا غير واضح لامرأة تبينت بعد وهلة ملامحها.

أدركت في تلك اللحظات أين أنا..

لقد عدت من رحلتي البعيدة..

ناولتني علبة المناديل الورقية، كفكفت بها دموعا سالت دونما أشعر، ثم كوبًا من الماء البارد مصحوبًا بابتسامة: لقد قطعنا اليوم شوطًا كبيرًا وأعتقد أننا اقتربنا من نهاية الطريق.

أراكِ بعد أسبوع في نفس الموعد.

تمَّت

فات الميعاد

عـاد إلى أرض الوطـن بعـد غربـة وغيـاب أكثـر مـن خمـس وعشريـن عامًـا قضاهـا في إحـدى الـدول العربيـة سـعيًا وراء مسـتقبل أفضـل وحيـاة رفاهيـة تمنـى أن يعيشـها في حضـن أسرة كبـيرة يملؤهـا الأولاد والأحفـاد، بيـت مفتـوح لا يُغلـق بابـه في وجـه سـائل ولا يـرد عنـه طالـب.

عنـد فتـح أبـواب الطائـرة لفحتـه رائحـة طالمـا اشـتاق لهـا: رائحـة الوطـن. كـم مـن سـنوات غربـة مضـت امتصـت روح الشـباب وأبقـت جسـدًا نحيـلًا ورأسًـا غـزاه الشـيب وقلبًـا مثقـلًا بظـلام وحـدة قررهـا لنفسـه يـوم رحـل.

لـن أقيـم إلا في وطنـي مهـما امتـد بي العمـر، لـن أكـون إلا للحبيبـة التـي سـالت دموعهـا ونظراتهـا تحتضـن الوجـه المطـرق أرضًـا لا يجـد الشـجاعة ليواجـه تلـك الدمـوع الغاليـة، صرخـت عيناهـا:

توقف!

لا ترحـل، لمـن سـتترك ذاك القلـب الـذي تعلَّـم الحـب مـن نظـرة عينيك وعـرف معنـى السـكون في راحة يديـك كل مـبررات الدنيـا مرفوضة.

أدار لها ظهره والروح تتكسر وكأنها شظايا زجاج تدمي جسده من الداخل حتى خشي أن تسيل الدماء من جوانبه وتراها تعلم أن من أدار لها ظهره ماهو إلا جسدًا مثخنًا بجراح الرحيل.

سافر وأحلامه تسبقه وعاد يجر ما تبقى منها وكل أمله اللحاق بأهداب الصورة القديمة التي عاش يمني نفسه عمرًا طويلًا بها.

وصل ساحة المطار ووقف لالتقاط الحقيبة الوحيدة التي عاد بها وسرعان ما أنهى الإجراءات وقف خارجًا يجول بنظره فيما حوله كم تغير المنظر وخيال ابتسامة تهكُّم ولسان حاله يقول ومن ظل على حاله.

اقترب منه سائلًا: ليموزين يا باشا. هز رأسه بالموافقة قائلًا: ميدان الظاهر من فضلك.

بعد أن أنهى الليموزين إجراءات الخروج من المطار سار باتجاه طريق صلاح سالم، وعندها قال له الراكب ممكن تلف بيَّ شوية شوارع البلد وحشتني. فردَّ عليه: على ما نوصل يا باشا تكون اتفرجت وشبعت فرجة بس ادعي نعرف نوصل في ساعة أو أقل. قالها وأخذ طريقه.

متوجهًا لمدينة البعوث ثم أحمد سعيد ومنها إلى ميدان الظاهر.

هاله تكدس السيارات والاختناق المروري، وعندما أبدى تعجبه من الزحام بادره سائق التاكسي بسؤال: هو حضرتك غبت كتير عن مصر؟

ردَّ وذهنه في مكان آخر قائلًا: كتير..

ثم غرق في تأمل أضواء الشارع وطعم مرارة الرد لم يفارق لسانه..

لِمَ العودة؟

ذهبت حبيبة القلب إلى رجل آخر رجل بنى بها بيتًا على أنقاض بيت أحلامهما الذي بنياه معًا حدَّدا عدد غرفه، أماكن غرف الأولاد وحتى أسماؤهم. لِمَ لم تنتظري؟ أما وعدتك بسفينة نوح تمخر بِنَا عنان عواصف الدنيا والقدر، ألم يكن عشقنا قويًّا يتحمل بعض سنوات الانتظار ريثما أعود.

وصل إلى العنوان الذي أعطاه للسائق، وبعد أن نقده المبلغ المتفق عليه حمل حقيبته وصعد بها، صعد البواب خلفه راكضًا: طالع عند مين يا حضرة.

فالتفت إليه الدور التالت شقة ٦، فردَّ البواب: أصحابها مش موجودين مسافرين بَرَّه.

فابتسم قائلًا: آديني رجعت أهو يا راجل يا طيب، عندك مانع؟

فصاح حسن البواب مُرحبًا: يا ألف أهلًا وسهلًا، حمد الله على السلامة يا بيه نورت العمارة كلها.

صعد مسرعًا ليحمل حقيبة الأستاذ حازم العائد من السفر بعد غيبة طويلة قائلًا: طيب مش كنت تدينا خبر نطلع ننظف الشقة بدل ما حضرتك تبات في العفرة دي.

رد حازم: خلاص بكرة الصبح تطلع وتجيب معاك حد وتشدوا الشقة شَدة حلوة. ثم استدرج قائلًا: أخبار سكان العمارة إيه؟

لم يكن يقصد بالسؤال إلا أخبار الشقة المواجهة لشقته.

أبى حسن إلا أن يزيده فضولًا فذكر تاريخ العمارة منذ كان أبوه -ألف رحمة ونور عليه- أحسن بوابين العمارة والعمائر المحيطة إلى أن وصل إلى مشاكل صيانة المواسير والأسانسير اللي بيعطل أكتر أيام الشهر ويشتغل يومين بالعافية.

أيها البواب الثرثار، مالي أنا وأخبار الهم ده. فأمسك عن السؤال إلى الغد لربما يخرج منه بما يخفف من حنين القلب.

في الساعة الثامنة صباحًا، وجد طرقًا قويًّا على باب الشقة فقام متثاقلًا يجر قدميه ليفتح الباب ودخل حسن البواب وبصحبته أحد أبنائه ومعهما صينية تحتوي على كوب من الشاي الثقيل «سكر بَرَّه»، وأكياس ورقية بها أرغفة صغيرة من الفول والطعمية، وبادره حسن: «بسم الله يا بيه وحياة حبيبك النبي ما تكسف إيد أخوك الصغير حسن، لقمة على ما قُسِم الشقة مافيهاش أكل ولا تلقيمة شاي فابتسم حازم قائلًا صاحب واجب يا حسن هدية مقبولة ويجعله عامر».

بدأ حسن وابنه عبد الله في تنظيف الشقة بدءًا من الشيش الخشب ودِرَف الزجاج إلى تزعيف الأسقف من بيوت العنكبوت التي كونت مستعمرات أثناء غياب أصحاب المكان.

وفجأة وجَّه حازم سؤالًا مباشرًا إلى حسن: أخبار عائلة الدكتور صبري الكاتب إيه؟ هُمَّا عزِّلوا من هنا ولا لسه موجودين؟

فردَّ حسن بلا مبالاة: الشقة مقفولة بعد وفاة الدكتور والست نور بنته آديلها زمن مش بتيجي بس كل ٦ شهور يجي حد منهم يدفع الإيجار وياخد الإيصالات ويمشي.

فسأل حازم بلهفة حد مين؟ رد حسن: آهو مرة الباشمهندس هادي ابن الست نور الكبير ومرة أخوه الصغير كريم فأعاد السؤال: وهي الست نور مش بتيجي تطمن على المكان؟

رد البواب: الأول كانت بتيجي تقعد لها نص ساعة، ساعة، وبعدها تاخد بعضها وتمشي وبعد المرحوم جوزها ما قابل وجه رب كريم من كام سنة بعيد عنك جتله جلطة وما طولش فيها ما عدناش بنشوفها خالص.

سكت حازم عن السؤال بعد الإجابة الأخيرة وهو لا يدري أيفرح لما سمع أم يحزن لحال حبيبته ومسلسل الهموم الذي رافق حياتها، ولكنه داخليًّا كانت هناك ابتسامة أمل تتراقص بصدره.

تحدث بلسان الحزن وهو يوجِّه كلماته للبواب يا خبر والله ما عرفت انت عندك عنوانهم، لازم الواحد يعمل الواجب دول كانوا أحسن الجيران.

ردَّ حسن: كانوا سايبين العنوان مع أم عبد الله عشان لو فيه حاجة مهمة تخص الشقة هاطلعه لحضرتك مع عبد الله.

بعد ان انتهى حسن وابنه من تنظيف الشقة نقده حازم مبلغًا محترمًا للغاية كأنه يكافأه على المعلومات التي أعادت النبض لقلبه وأعادت لأوصاله ماء الحياة مرة أخرى.

بعد يومين كان حازم قد أعد نفسه اللقاء المرتقب بعد أن اتصل وأخذ موعدًا من الابن الأكبر للمحبوبة بغرض تقديم واجب العزاء لأسرة الفقيد من جار لهم كان مسافرًا وقت الوفاة.

وفي اليوم المنتظر كان حازم في حالة من عدم التوازن نتج عنها تغيير البذلة عدة مرات، وبعد أن استقر على الشكل المرغوب وضع كمًّا من زخات العطر مبالغ فيها وكأنه بصدد زيارة لخطبة عروس.

غادر الشقة وهو لا يكاد يشعر بخطوات قدميه على الأرض ممنيًا العين والقلب برؤية الحب القديم ربما سينعقد لسانها من الفرحة أو ستتراقص في عينيها الجميلتين نظرات الوله لمن كان يومًا الدنيا وما عليها وظل على حاله إلى أن وصل إلى مسكّن الحبيبة وسأل البواب على منزل المرحوم الدكتور محسن فتح الله وقام البواب حسب الأصول واصطحب الضيف إلى المصعد، وقال له: الدور العاشر شقة ١٠١ والاسم على الباب.

صعد حازم وأصابع يديه ترتعش بعد أن ضغط زر المصعد وحالة من الوهن اعترت قدميه.

وقف المصعد وخرج من الباب ووقف أمام الشقة واللافتة تشير إلى الاسم ولسان حاله يقول: ألم يكن من المفروض أن يكون اسمي أنا فوق تلك اللافتة. وامتدت يده وضرب الجرس وشك لوهلة أنه لم يدق فأعاد الضغط مرة أخرى وسمع وقع أقدام تقترب من الباب ووجد شابًا جميل المحيا واقفًا بالباب مرحبًا به وداعيًا للدخول إلى الصالون.

دخل وهو خافت العينين واتخذ أول مقعدٍ صادفه، وجلس وبدأ يجيل النظر في المكان؛ صالون أنيق يدل على ذوق عالٍ ومستوى اجتماعي مرتفع.

ثم عاد الابن ومعه السفرجي سائلًا الضيف: تشرب إيه حضرتك؟

أجاب: قهوة مظبوط من فضلك.

جلس الشاب مرحبًا بالضيف: أنا هادي ابن المرحوم الكبير والله أنا عاجز عن شكر حضرتك على واجب العزاء بعد مضي تلك المدة وقد علمت من والدتي إن حضرتك بقالك زمن طويل مسافر بَره مصر بس الناس اللي تعرف الأصول لسه موجودين برضو.

واستمرت الجلسة قرابة الساعة و هم يتناولون مختلف الأخبار الخاصة بظروف البلد وأحوالها وقام الضيف وهو في دهشة من أمره، وبادر الشاب قائلًا: كنت أتمنى أسلم على الوالدة وأقدم واجب العزاء. فردَّ عليه الشاب بمنتهى الأدب: الوالدة تعتذر عن التواجد فهي قلّما تقابل أحدًا بعد وفاة الوالد وتبلغ حضرتك رسالة شكر وأن العزاء بلغها منذ زمن.

تمَّت

❁❁❁

صانع الأحلام

وصلت رحلتها إلى نهايتها فاستعدت للنزول، نزلت حاملة حقيبة يدها وانتظرت حتى أفرغوا ما بباطن الأتوبيس من حقائب وحصلت هي على حقيبتها ذات العجلات وسارت على الرصيف تتعثر ثم تتابع السير بصعوبة لوجود أعمال حفر بطول الرصيف.

على عينيها نظارة شمسية أخفت معظم ملامحها، أشارت لسيارة أجرة ركبت إلى جوار السائق قائلة اذهب بي إلى قرية تونس.

أومأ برأسه وتحرك، سار مدة قرابة النصف ساعة إلى أن وصل إلى طريق ترابي يصل لبوابة المكان.

فحص القائمين على تأمين المكان على هويتها تم السماح للسيارة بالمرور والسيارة تتهادي من مطبات الطريق وصوت الموتور يئن من حالته حتى وصلت إلى فندق صغير، ولكن يبدو عليه إمارات الحداثة إلى حد كبير، شكرت السائق ونقدته الأجرة ووقفت أمام البوابة وضربت الجرس وسمعت صوت المزلاج يصدر صرير صدئ الحديد وفُتح الباب عن وجه كهل أسمر من حرقة الشمس يناهز السبعين أو أكثر.

أخبرته أنها حجزت غرفة من صاحبة الفندق فأومأ برأسه قائلًا: أهلًا بحضرتك نورتني تونس.

وبعد دقائق وافتها السيدة صاحبة المكان بالترحاب واصطحبتها للغرفة الخاصة بها سائلة عن عدد أيام الإقامة فأجابت أنها لا تدري بعد، مبدئيًا أسبوع ثم تقرر.

ودعتها السيدة اللطيفة وغادرت وأغلقت الباب وراءها.

وبدأت تكتشف المكان اطمأنت أن الفرش نظيف، وأن الحالة العامة للمكان جيدة وفتحت الشرفة المطلة على الحديقة، وكانت الفترة ليست بفترة ازدحام لمرتادي الفيوم وبخاصة قرية تونس.

وبعدما أفرغت حقيبتها جلست في الشرفة تنظر للطبيعة الرائعة النخلات العالية والسعف الذي ينحني محتضنًا فروع البلح بحنو، ومدى صفاء اللون الأخضر بتفاوت درجاته مع تنسيق تصميم المكان الرائع.

جسر حجري يمر من أسفله مجرى ماء رقراق و هيكل قديم لساقية خشبية، تحركه المياه التي تملا زلع فخار معلَّقة على أطراف الساقية تؤكد على طبيعة المكان الأصيلة بنفحة أثرية لم تعد موجودة والأرض التي اكتست ببساط النجيل الأخضر تناثرت خلاله الأزهار بألوانها الزاهية.

يالجمال المكان وهدوئه لقد جاءت إلى هنا قبلًا في معرض الفخار الذي يقام سنويًّا وأحبت القرية وأهلها الطيبين، وكرم الضيافة التي غمروها وأصدقاءها به فترة المعرض.

وعشقت دولاب الفخار يلفه الصانع بقدمه بمهارة ويديه تشكل

أجمل آنية من الطين كان إحساسها يمتزج بالقطعة التي تتشكل أمامها وكأن النسيج الطيني الرطب يشكل مع دوران الدولاب قصة حياة ربما تكون قصتها ألم نخلق من طين إنها إذًا أمام قصة خلق لكيان سيعيش حياة خاصة به ولكنها خالية من الروح تلك الروح التي تضفي علينا كينونتنا وهوّياتنا المختلفة.

لم تأتِ هذة المرة لحضور معرض وإنما جاءت تلتمس وقفة للزمن وبرهة تلتقط بها أنفاسها بعد أن دار بها دولاب الحياة فغيَّر مسارها.

كانت هي من أدار الدولاب ومن شكَّل الكيان المسخ الذي تعيش بداخله وهي أيضًا من ألقت به إلى الأرض فحولته قطع صغيرة كل منها شاهد على الفشل.

لقد أتت تبحث عن دولاب تمد قدمها لتديره بقوة وبعزم أكبر علها تبني كيانًا يتسع لأحلامها.

جاءت تبني أبراج حمام بيضاء تستقبل بها السعادة وتؤمن الحماية بداخلها لمن يطلبها وتشبع آمالًا قديمة بالسَّكينة والسلام.

نعم، لقد اكتفت من التخبط بداخل المتاهة التي عاشتها تحت اسم الحياة الدنيا، آن للروح أن تهدأ وللقلب أن يفرح وللحمام الأبيض أن يحلِّق مع شروق الشمس.

فلتكن هذه هي محطة البداية للانطلاق ولتبدأ تشكيل كيانها الخاص تغزله بروحها وتصبغ ألوانه بكلماتها كما تمنت يومًا، لعل الدولاب يدور بها إلى حياة أجمل.

تمَّت

❋❋❋

الوجه الآخر

قامت تستند على ما حولها من الأثاث تجد طريقًا إلى المطبخ للحصول على الولاعة الخاصة بالشمع وهي تحادث نفسها: هو إيه حكاية قطع الكهربا اللي شغال عمال على بطال ده، فالحين بس يطبوا علينا زي «العمل الردي» كل شهر بالفاتورة تكهرب اللي يمسكها في إيده.

وأخيرًا وصلت لضالتها وأشعلت عددًا من الشموع العطرية التي صنعتها بيديها برائحة الورد البلدي الذي اختارته ليفوح شذاه في كل مكان حتى أضاءت الشموع البيت الصغير بشكل مبالغ فيه وكأنه مشهد من فيلم سينمائي وجلست بعدها على أريكة ذات طابع عربي أمامها طاولة مستديرة من النحاس لها قواعد خشبية من الأرابيسك، وبعض الخداديات مطبوع عليها كتابات بالخط الكوفي ملقاة على أحد الجوانب زادت من الروح الشرقية في المكان.

هكذا كانت رُقية، مصرية الجنسية شرقية الروح والهوية، فنانة تشكيلية جمعت جزيئات حياتها من قطع صنعتها بيديها من

ستائر وضعت تصاميمها ونفَّذتها بيدها إلى لوحات زينت جدران البيت إلى أرضيات خشبية انتقت لكل مكان الكليم الذي يناسبه.

جلست إلى هذا الركن فهو ركنها المفضل للاستمتاع بتاريخ عاشته من خلال ذكريات والدها، من أغنيات سيد درويش، وأم كلثوم، وَعَبَد المطلب، وَعَبَد الوهاب. لا لم يكن عمرها هو ما عاشته، ولكن ذكريات سكنت بداخل سنوات عمرها رأت فيها نقاءً وأخلاقيات عالم مثالي حبست حياتها بين جدرانه ودون أي رغبة في الخروج عنه.

حتى طبيعة ملابسها كان لها طابع خاص بها، حتى إنه يخيل لمن يراها أنها خرجت من إحدى القصص القديمة.

أشعلت إحدى سجائرها بالنعناع وهي تتصفح إحدى الدوريات الفنية و التي تتناول كبار فناني العالم في مجالات الفنون المختلفة، وكان التركيز على الاحتفال بذكرى مولد الرائع «بيكار» مع وضع بعضٍ من لوحاته وأجمل الخطوط الانسيابية للوحات الفنان العظيم.

ووقع نظرها على صورة لرجل ملامحه ليست غريبة على ذاكرتها، ومكتوب تحتها: افتتاح معرض لفنان مصري مغترب مقيم في إحدى دول المغرب العربي.

وعند وقوع نظرها على الاسم أحست فجأة بأن الأرض ترتج من تحتها، غامت العين للحظات، وعاد بها الزمان لأجمل وأقسى سنوات العمر في آنٍ واحدٍ فتاة في السابعة عشرة تخطو أولى خطواتها في كلية الفنون الجميلة بالزمالك، دخلت من البوابة وهي تمنع

نفسها من صيحة الفرح.. لكم تدربت على الكلمات: ها أنا ذَا وصلت لتغيير قدر الفن في مصر والعالم.

ووجدت نفسها تكتم ضحكة أوشكت على الخروج رغمًا عنها.

وبدأت تعيش الفن والألوان وكأنها خُلقت لهذه الدنيا. اندمجت في كل المجموعات تتعلم من الأساتذة والطلبة أيضًا، كانت تتلمس طريقها بمنتهى الجدية والدقة إلى أن كان يومًا تحولت فيه حياتها إلى منعطف جديد.

رأته من بعيد، معيد في الكلية، وسامته حديث الفتيات، وجديته تجتذبهن إليه. لم يحدث أن تباسط مع إحداهن أو رفع حواجز العلاقة كأستاذ وطالبة مع أيٍّ كان، إلى أن كان يومًا اصطدمت به وهي تصعد مسرعة لقاعة الرسم بسبب التأخر في المواصلات، وسقطت معداتها على الأرض فانحنى يساعدها على النهوض ويلملم ما تبعثر منها فأومأت شاكرة وجرت لتلحق بالورشة الخاصة بالعمل، وما إن دخلت حتى تنفست الصعداء؛ فلم يدخل الدكتور بعد. جلست تهندم ما تبعثر من شعرها وأشيائها وسمعت غلق باب المرسم فرفعت رأسها فالتقت عيناها بالوجه المليح ذي الذقن المشذبة والعينين الجميلتين وكأنها تحوي بداخلها أسرار الكون.

أرخت عينيها وهي تستمع لصوته: الدكتور بيعتذر بسبب دور أنفلونزا وأنا هتابع معاكم لحين شفائه.

مرت ساعات المرسم بهدوء وهي تعمل بأقصى درجات الإجادة. وعند انتهاء الوقت بدأ الطلبة في المغادرة وانتبهت عليه وهو يتأمل أداءها بابتسامة خفيفة ظهرت على محياه: في يوم من الأيام سنقف جنبًا إلى جنب في افتتاح أحد معارضك وسأُذكِرُك حينها.

كانت تكفيها تلك العبارة بنبرة صوته الواثقة لتقلب كيان دنياها لتخلق بداخلها حالة سعادة غير مفهومة ولا واضحة المعالم.

أصبحت تذهب للكلية وبداخلها اندفاع للتواجد في محيطه لم يكن يعنيها أن يراها ولكن كل أمنيتها أن تلمحه أو يسعدها القدر بسماع صوته في أي توجيه أو إشارة لعملٍ يحتاج لتعديل أو إعادة نظر.

سارت حياتها على نفس الوتيرة دونما أن تفقد الأمل إلى أن كان يومًا فاجأها بسؤال أثناء انكبابها على لوحة لمنظر طبيعة صامتة في حديقة الكلية.

آنسة رقية حضرتك مرتبطة عقدت الدهشة لسانها و اتسعت حدقتا العينين و لم تجد فيها القدرة للرد وإنما أومأ برأسها أن لا؛ فتابع كلماته: لو سمحتِ حددي معاد مع الوالد، أنا عاوز أقابله في موضوع يخصك كانت في حالة أشبه بالذهول لم تستطع الوقوف من هول المفاجأة، واستمرت في جلستها لمدة ربع ساعة إلى أن استجمعت نفسها وبدأت تلملم أغراضها وخرجت من الكلية وأشارت لتاكسي لم يكن لديها قدرة أن تنتظر إحدى وسائل المواصلات الأخرى وصلت إلى المنزل ووضعت يدها على الجرس ولم ترفعها إلا بعد أن فتح والدها الباب صارخًا: إيه الوَش ده مافيش تمييز. وفوجئ عندما وجد ابنته رقية هي من تدق الجرس، وفي لحظة واحدة أدرك أن بها شيئًا ما لم يعهده قبلًا لم يكن هناك سواهما بعد وفاة والدتها منذ ثلاثة أعوام.

وأخذ الأب بيد رقية وأجلسها ثم بعد برهة وجيزة سألها مالك يا روقة فيكِ إيه احكِ لبابا. وحكت رقية ما كان بينها وبين أستاذها من حوار وأطرق الأب برأسه قليلًا ثم رفع رأسه

مخاطبًا ابنته: حبيبتي، إنتِ تعرفي إيه عنه غير إنه أستاذك؟ فنظرت له وعلامة استفهام كبيرة على وجهها.

قالت له: هو يا بابا شاطر ومهذب ومحبوب من الطلبة.

فنظر إليها نظرة حنوٍّ وقال لها: حددي موعد الخميس الجاي الساعة ٨.

كانت رقية تعيش أطول الأيام إلى أن حان يوم الخميس، ويومها قامت بالتغيُّب عن الكلية واستعانت بزوجة البواب لتنظيف الشقة وعاد والدها من عمله ومعه بعض علب الحلوى وحان الوقت ودقت الثامنة، وبعدها بدقائق حضر الشاب ومعه باقة جميلة من الأزهار.

جلس مع الوالد وقامت رقية بتقديم الضيافة المعتادة ودخلت إلى غرفتها في انتظار ما سيحدث.

قام الوالد بسؤال الشاب عن أسرته، حيث أنه لم يحضر معه أحد فأجاب بمنتهى الثبات: أسرتي من الفلاحين ولهم أعمال لا يستطيعون تركها، وسوف تجتمع بهم بإذن الله عند إتمام مراسم الزواج والتي أتوقع أن تكون بنهاية العام الدراسي القادم، ولكن بالإمكان السؤال عنّي وعن أخلاقياتي مع أغلب أساتذة الكلية.

وإلى هنا انتهت الزيارة، وقام الضيف لينصرف واستدعى الأب رقية التي حضرت وعيناها تمتلئان باللهفة والرجاء.

وبدأ الأب حديثه: رقية، أنا عمري ما فرضت عليكِ رأيي ومش هابدأ دلوقتي بس في حاجة في الشاب ده مش مريحة، في إحساس واصلني منه مش مريحني. أنا هسأل عليه، بس خلينا نطول فترة الخطوبة يا إما نطمئن أو كل واحد يروح لحاله.

وسرعان ما انتشر الخبر في الكلية انتشار النار في الهشيم وتفاوتت ردود الأفعال بين مهنئين وحاقدين وغير مصدقين، وكانت رقية تعيش أزهى أيامها في دور خطيبة فارس أحلام أغلب زميلاتها.

ولكن كان هناك دائمًا شيء ما لا تستطيع تفسيره في تصرفات خطيبها؛ فهو يبدي لها الود أمام بقية زميلاتها وزملائها بينما وحدهما يتصرف بقسوة وكأنها لا تعنيه في شيء. كتمت مشاعرها وخاصة عن والدها، ولكنه أصبح يجاهر بجفائه معها أمام العامة والتقليل من مجهودها في الدراسة.

مما كان له أسوأ الأثر في تأخر نتائجها الدراسية، وعند هذا الحد قرر والدها السفر لبلدة خطيبها الوسيم. وبعد التوصل لعنوان أسرته في البلد. وعقد العزم على أن يرحل دونما أن يخبر ابنته بنيته لمعرفة ما يخبئه هذا الغريب.

سافر إلى مسقط رأسه. وعند وصول القطار إلى بلدته بدأ بالسؤال عن أسرة الشاب وبعد جهد جهيد استدل على المنزل، وكان من الواضح أنهم أسرة متوسطة الحال، تقدم وطرق الباب ففتحت الباب طفلة صغيرة لا تتجاوز السادسة فتلطف فوق السؤال قائلًا: أبوكِ فين يا بنتي؟ ركضت الصغيرة من أمام الرجل وهي تنادي: «يا أمه يا أمه، شيخ بيسأل على أبويا». تقدمت سيدة في أواخر حملها يبدو عليها حداثة السن وسألته: خير يا أبا الحاج بتسأل عن مين. فأجابها متلطفًا باسم خطيب ابنته فقالت: خير هو سي الأستاذ كويس كفى الله الشر صابه حاجة عفشة.

فردَّ الأب قائلًا: لأ يا بنتي أنا جاي أطمن على والده.

ردَّت السيدة الصغيرة: أبويا الحاج طلع من الفجر على السوق.

فردَّ الوالد: امّال إنتِ تبقي أخته؟

فأطلقت ضحكة تعمدت أن ترنها بدلالٍ: لا يا عّم أنا مَرَته واللي فتحت لك دي بنته الكبيرة.

ومرت لحظة جفَّ فيها ريقه، وطلب منها كوب ماء، فنادت: يا بت يا منى هاتي القلة للراجل يشرب.

وبعد أن تجرع الماء شكر الزوجة وتمنى لها الصحة وعاد إلى محطة القطار ذاهلًا مما سمع من أخبار ذاك الأفَّاق المخادع. وحين عاد إلى منزله دخل حجرته واستدعى رقية التي جاءت مسرعة:

- كنت فين يا بابا طول النهار؟ خضتني عليك.

أمسك بيديها الرقيقتين متلعثمًا وطفرت من عينه دمعة وهو يقول:

- يا ابنتي حياتنا تسيِّرها الأقدار، واختيار الله دايمًا له حكمة ممكن تكون غايبة لكن في اللحظة المناسبة ربنا بيشيل الغشاوة عن العيون.

وسرد لها ما كان من أمر الرحلة وما جرى فيها، فرفعت إليه عينيها وقد اغرورقتا بالدموع قائلة: لقد كنت أعلم أن هناك خطأ ما في هذه القصة، ولكنها ليست نهاية القصص. ما زال هناك لوحات لم تكتمل، وحكايا لم تُحكَ بعد.

وأغلقت رقية الدورية وابتسامة سخرية علت الوجه وهي تلقي بالصفحة في سلة المهملات.

تمَّت

عود بخور

يوم جمعة ربيعي أشرق على حي الحسين الأصيل تسلل ضوء الشمس بلطفٍ عاكسًا ألوان زجاج المقهى على الأرض معلنًا بداية اليوم .

قليل من التململ والتمطي، بعدها استيقظ سعد الصبي ابن الخمسة عشر عامًا؛ لترتيب المقهي من آثار رواد آخر الليل ، فحي الحسين لا ينفض منه زائروه سواء أكانوا أولاد بلد أم أجانب، وبما أنه يوم الجمعة؛ فاليوم موعد النظافة الأسبوعية ولن يفتح المقهى أبوابه إلا بعد الصلاة.

أسرع سعد بعزم فتى في الخامسة عشر من العمر لعربة الفول، وصاح بأعلى صوته:

– شقتين فول، وتلاته طعمية وزود الطحينة يا عّم مغاوري.

انتبه إليه مغاوري وناوله ما طلب قبل البقية الملتفة حول العربة. فسعد محبته في قلوب أهل حتته كبيرة فقد جاءهم رضيعًا على ذراع أمه التي قدمت من مكان بعيد بعد أن توفي أبوه، وحاولت أسرة الأب تزويج أمه من العم ليضع يده على قيراط أرض كانت مِلكَ المتوفي.

فـرَّت الأم بالطفـل تحـت جُنْـح الليـل هاربـة حتـى قادتهـا قدماهـا إلى جـوار مقام سـيدنا الحسـين.

اسـتقرت في غرفـة رطبـة في بـدروم، أجَّرهـا لهـا الحـاج سـيد مـرسي، كان يسـتخدمها كمخـزن يضـع فيـه لـوازم مقهـاه الكائـن تحـت العقـار المملـوك لـه

عاشـت السـت إنصـاف -ذاك اسـمها- تـربي سـعد وسـط أهـل الحـي، وكان أكثرهـم أناسًـا طيبـين أحبوهـا وطفلهـا، كانـت تخـرج صباحًـا للعمـل في البيـوت وتـترك سـعد مـع الحاجَّـة دُريـة زوجـة الحـاج سـيد فتتـولاه الأخـيرة بالرعايـة والطعـام مـع بناتهـا؛ حيـث أن خلفتهـا كانـت كلهـا بنـات إلى أن تعـود إنصـاف مـن عملهـا.

إلى أن كان يومًـا حزينًـا، خرجـت أم سـعد ولم تعـد وسرى الخـبر ووصـل الحـارة بأنهـا راحـت ضحيـة حـادث سـير أثنـاء نزولهـا مـن المواصـلات وتدافُـع الـركاب؛ ممـا أدى لوفاتهـا. اشـترك أهـل الشـارع في تشـييع جثمانهـا ودُفنـت في مقابـر أسرة الحـاج سـيد، وأعلَـن هو مسـؤليته عـن سـعد إلى أن يصبـح رجـلًا ويزوِّجـه، وهكـذا تربـى سـعد طفـلًا في بيـت الحـاج إلى أن بلـغ الحاديـة عـشر ة.

عندهـا قـرر الحـاج سـيد أنـه قـد آن أوان الفصـل بـين الولـد والبنـات؛ فأعـدَّ الغرفـة التـي سـكنها سـعد مـع المرحومـة أمـه وجهزهـا لتشـمل كلَّ مـا يحتاجـه مـن لـوازم.

حـاول الحـاج إلحـاق سـعد بالمدرسـة حتـى يأخـذ قـدرًا مـن التعليـم يعينـه عـلى الدنيـا ومتطلباتهـا حـين يشـتد سـاعده.

لكـن لم تكـن الدراسـة تسـتهوي الفتـى وقنـع بمرافقـة الحـاج سـيد

للمقهى والمساعدة في الأعمال المطلوبة على قدر ما يتحمل ويعي.

مرت أربع عشرة سنة، وأصبح سعد أحد أفراد العائلة ، نشأ الفتى وحُب آل البيت يكبر في قلبه مع حب الأسرة التي تولت رعايته وعاملته كفردٍ أصيلٍ من أفرادها.

يوم الجمعة في حي الحسين يختلف عن باقي أيام الأسبوع، خاصة في قلب الفتى سعد.

فهو اليوم الذي يتناول فيه الغداء في بيت الحاج مع أسرته، معنى ذلك رؤية نجاة الجميلة.

لطالما كانت أرقَّ عليه من أخواتها.. كم من المرات أعطته من الأطايب التي تعدها أمها.. صوت ضحكاتها يسكن البهجة في فؤاده.

أخذ يمنِّي نفسه وهو يزدرد لقيمات الفول والطعمية بسرعة كي يصعد للقهوة ويقوم بتهويتها ورشها وغسل القواعد الزجاجية للشيشة ووضع ماء الزهر للحاج في القلة وتجهيز الصينية لها بوضع الماء البارد وعيدان النعناع الأخضر وقطع الليمون؛ إرضاء للحاج الذي يرفض استبدال طقوس شرب الماء من القُلة بأي زجاجات من أي نوع.

سارع إلى فتح الشبابيك الزجاجية الملوَّنة على شكل الفسيفساء، ومسح بلاط المكان، وبعدها أعاد وضع الطاولات والكراسي إلى مكانها، ثم أدار قنوات الراديو على إذاعة القرآن الكريم .

الآن حان موعد آخر الطقوس وأهمها وهي: إشعال عود البخور العملاق الذي يصل شذاه كما يقول الحاج إلى بوابة النصر.

نـزل إلى غرفتـه للاسـتحمام وتبديـل ملابـس العمـل وارتـداء الجلبـاب والطاقيـة اللذيـن قامـت الحاجـة دُريـة -أنعـم الله عليهـا بالصحـة والعافيـة- بغسـيلهما وتزهيرهمـا حتـى يظـن مـن يـراه أنـه ابـن أحـد الوجهـاء. كان يسـتعد للذهـاب للصـلاة مـع الحـاج في الحسـين.

مـرَّ الوقـت وانتهـت الصـلاة وانـصرف كلٌّ إلى مـا يبغـي وعـاد الحـاج ومعـه سـعد إلى القهـوة وبـدأ الوافـدون بالظهـور.

الأسـتاذ سـامي، موظـف بالمعـاش، وحيـد بعـد وفـاة زوجتـه وسـفر أولاده للخـارج، يجلـس في مكانـه المعتـاد ومعـه الجرائـد القوميـة: الأخبـار والأهـرام والجمهوريـة. وهـو ضـد جرائـد المعارضـة فهـي بالنسـبة لـه صحافـة صفـراء. وقبـل أن يرفـع يـده مناديًـا، سـارع سـعد برفـع صوتـه للقهوجـي: الينسـون الدافـئ للأسـتاذ سـامي.

ابتسـم سـامي ابتسـامة أبويـة كبـيرة قائـلًا: عـارف يـا واد يـا سـعدإنت فيـك نباهـة ماشُـفتهاش في حـد مـن ولادي خسـارتك في قلـة العـلام يـا ولـد.

فـردَّ سـعد : يـا عّـم سـامي مـا انـت شـايف أغلـب الـلي عـلى القهـوة شـهادات ومافيش أشـغال.

سامي: برضو يا ابني العلام حلو والشهادة سلاح.

اسـتدار سـعد ومعـه الصينيـة الفارغـة وعـلى وجهـه ابتسـامة يشـوبها بعـض الألم.

ومـا هـي إلا نصـف السـاعة أو أقـل حتـى امتـلأت القهـوة ولا موضـع لقـدم.

صاح المعلِّم سيد على صبي القهوة حسونة: إشهل شوية ولّا مش هتلاحق على الزباين وتقلب خناقات على المشاريب المتأخرة.

وبعد صلاة العصر، استعد الحاج سيد للصعود للغداء مصطحبًا معه سعد الذي كان يعد الدقائق منذ الجمعة الماضية للزيارة الميمونة: وليمة غداء، ولقاء الأحبة.

صفق الحاج الباب قائلًا: يا ساتر.

جرت البنات إلى الغرف للاستتار ولبس طرحة الرأس؛ فللحاج قواعد صارمة فيما يتعلق بحُرمة البيت وسعد يبقى غريبًا.

للحاج ثلاث فتيات، صغراهن نجاة والكبرى سميرة، أما الوسطى فهي اعتدال.

نجاة أصغر من سعد بأربع سنوات، واعتدال أكبر منها بسنتين، أما سميرة فهي الكبري عروس أبيها.

كان قرار الحاج أن تتعلم البنت حتى تحصل على التوجيهية ثم يأتي دور العريس؛ فلابد من بعض العلام حتى يَكُنّ أمهات متعلمات، ولكن ليس إلى المرحلة التي تتعزز فيها البنت على زوجها بعلامها.

كان الخُطَّاب يتوافدون لطلب القرب من الحاج فسُمعته الكريمة ذاعت في المنطقة، كما أنه رجل ميسور الحال مهاب الطلعة يحترمه ويحبه كل من يعرفه.

بدأ الإعداد للغداء وفُرِشَت السفرة بالمفرش الأبيض المحلى بزهرات قطنية مختلفة الألوان بارزة على حوافه الدائرية،

ورصُت الأطباق الصيني روميو وجوليت ووضع إبريق الماء المزهر والأكواب على البوفيه في الخلف وبدأت الروائح التي يسيل لها اللعاب من تقلية الملوخية مصاحبة بشهقة الطشة للحاجة دُرية، تلاها خروج دكر بط محمر بالسمن البلدي وأطباق السلطات المتنوعة؛ من سلطة بلدي وطحينة، وبذنجان مخلل بالثوم. وأخيرًا خرجت الست دُرية من المطبخ وخلفها البنات حاملات أطباق الرز وسُلطانية الملوخية واجتمعت الأسرة على المائدة ومعهم سعد وهو يمنّي نفسه بأطايب الطعام وجمال الصحبة للجميلة نجاة حتى ولو لم يلمح منها سوى امتداد يديها تغترف من الطعام.

انتهى الحلم وحان موعد العودة إلى أرض الواقع.. إلى البدروم البارد بخلوِّه من الأحبة.

ومرت السنوات تسارع بعضها جميلة؛ فتزوجت سميرة من موظف في وزارة المالية في الدرجة السابعة وأقام لها الحاج الأفراح والليالي الملاح، وانتقلت إلى بيت العريس. تلتها اعتدال وقد تأخرت قليلًا فهي أقل في مستوى الجمال من أختيها بالإضافة لبعض البلادة في الطبع فلم تكمل سوى الابتدائية وبصعوبة، لكن كما يقولون: «لكل فولة كيال»، وكان كيال اعتدال صاحب دكان بقالة ابن ناس طيبين معاه الإعدادية، ولكن وضعه المادي لا بأس به، وتم الزفاف ووزع العريس على أهل الشارع أكياس الملبس والشربات.

ولعلنا نتساءل: أين سعد في غمرة الأحداث؟

سعد أصبح ذراع الحاج الأيمن، الابن الروحي، وما يزال ينتظر

دعـوة الحـاج إلى غـداء يـوم الجمعـة لـيرى البرعـم الـذي تحـول إلى زهـرة جميلـة ينتظـر أن تنـير حياتـه. لقـد رسـم حياتـه بهـا، ومـا هـي إلا فـترة وجيـزة حتـى يصـل مـا يدخـره إلى مبلـغ محـترم يتقـدم بـه إلى الحاج طالبًـا القُـرب.. ومـن أولى بهـا منـه! لقـد أشرقـت حياتـه عـلى شمسـها، كان يحلـم بالقـرب أثنـاء يقظتـه قبـل منامـه.

إلى أن كان يومًـا تأخـر فيـه الحـاج للنـزول إلى القهـوة بعـد قيلولـة العـصر، وكان سـعد كالعـادة محـل الحـاج إلى أن ينـزل.. وفجـأة انطلقـت زغـرودة قويـة تبعتهـا العديـد والعديـد مـن الزغاريـد خـرج سـعد مسرعًـا إلى الشـارع ثـم سـمع الحـاج سـيد ينـادي: اطلـع يـا سـعد.

انطلـق يصعـد الـدرج كل خمـس درجـات مـرة واحـدة حتـى وصـل إلى البـاب المفتـوح، دخـل وضربـات قلبـه تخنقـه فـلا يسـتطيع النطـق، ووجـد الحـاج سـيد بصحبته الأسـتاذ سـامي، و وبجـواره شـاب ثلاثيني الملامـح وعـلى الوجـوه أمـارات سـعادة، ووجـد موظـف الماليـة زوج سـميرة، وزوج اعتـدال في المـكان، والحـاج يأخـذه في أحضانـه: خـلاص يـا سـعد أنـا اطّمنـت عـلى أخواتـك البنـات مـش فاضـل عنـدي غـيرك. الباشـمهندس محمـود ابـن أخونـا الاسـتاذ سـامي رجـع مـن الخليـج و خطـب أختـك نجـاة.

لوهلـة لم يـدرك مـا يجـري حولـه، ولكـن دخـول نجـاة بالصينيـة الفضـة وعليهـا كاسـات الشربـات وابتسـامتها تنـير وجههـا لم يملـك أمامـه إلا أن يرتمـي في حضـن الحـاج ودموعـه تنهمـر عـلى جلبـاب الأخـير وهـو يقـول: ألـف مـبروك يـا أبويـا الحـاج، تفـرح بعوضهـم. والحـاج يربـت عليـه قائـلًا: مـا تخافـش يـا واد انـت ابنـي، إنـت بـس

نقي ست العرايس وأنا أجوزهالك النهارده قبل بكرة.

تم الزفاف ورحلت نجاة مع عريسها ومرت الأيام والشهور والسنين وتوفي الحاج تاركًا القهوة لسعد الذي ظل في خدمة الست دُرية إلى أن وافتها المنية ودُفنت في مقبرة الحاج سيد بجوار والدة سعد.

أما سعد فلم يتزوج بعد أن غابت شمسه في الخليج، تراه أحيانًا يوم الجمعة يشرف على القهوة قبل الصلاة ويدور مشعلًا فيها عيدان البخور التي يصل شذاها لباب النصر.

تمَّت

❁❁❁

غدًا يوم جديد

مع بداية أول ضوء للفجر تعالى صياح الديك إيذانًا ببدء نهار جديد يطل على دوار عمدة كفر الطيبين، وسرعان ما دبت الحركة في أوصال المكان وتعالت أصوات النعال ما بين مسرعة وأخرى تدق على الأرض بثقل من ينتعلها وبدأت أصوات المياه الجارية مشيرة لمن يقوم بالوضوء استعدادًا لصلاة الفجر وتعالى صوت جهوري: قومي الواد البليد ده يا فاطنة خليه يجي ورايا على الجامع عشان يلحق الفجر بدل ما هو نايم مأنتخ أكل ومرعى وقلة صنعة بلا خيبة، هاتي المداس يا ولية اتحركي.

وفي إحدى غرف الدوار يتململ إبراهيم (الواد البليد) على حد وصف أبيه العمدة ساخطًا ولاعنًا البخت الأسود اللي خلاه يصحى على تلك النغمة التي يصطبح بها أول كل يوم، ولكنه أسرع رغمًا عنه للحاق بالحاج مخافة تلقي المزيد من اللعنات.

وبعد الانتهاء من أداء الصلاة وازدحام المصلين لتقبيل يد العمدة اختلى العمدة بإمام المسجد طالبًا منه التحدث مع ابنه الضال حسب وجهة نظره.

قال إيه عاوز ينزل مصر ويعيش زي ما هو عاوز قال يبقى جورنالجي، جورنالجي إيه المعبوط ده هُمَّا لاقيين ياكلوا، دا حتى لو ربنا فتح عليه بكلمتين مالهُمش لازمة ممكن يزعَّل منّا الناس ويجيبلنا الكلام ومش بعيد نلاقيهم قافشينه ومرمي مع البلطجية والسوابق، وبعدين يغور يروح فين ومين يراعي الحال ويمسك العمودية من بعدنا. ثم عاود توجيه الخطاب الآمر لشيخ الجامع: انصحه كده وقولّه أبوك العمدة لو لزم الأمر هيحبسك زي الحريم، ما تشوف ضو النهار إلا من طاقة في الزريبة.

إلى هنا انتهت رسالة التهديد الآمرة .

وانصرف العمدة تاركًا إمام المسجد وهو في حيرة من أمره فجبروت الأب لا يخفى على أحد وعِند الابن وفورة الشباب وعنجهية السلوك لا تقل في أمرها عن الأب، ولكنه مضطر، واستعان بالله على ما هو مقبل عليه فهو يخشى على نفسه من بطش الأب إن لم يجد صدى للنصح عند الابن.

ونده على إبراهيم وبدأ الحديث باصطناع الحنية والنداء الأبوي: يا إبراهيم يا ابني انت مزعَّل الوالد ليه بس؟ دا رضا الأب من رضا الرب، وأبوك كبيرنا وأمره نافذ، وهو يعني غرضه إيه مش إنك تعيش العيشة المرتاحة والعز والصيت وبعد عمر طويل تبقي الأبعاديات والأملاك بتاعتك، وبعدين انت ليك إيه في أم الدنيا هو انت مش عارف الأحوال هناك، ويعني أصحابك اللي انت عاوز تعمل زيهم كان إيه اللي رماهم على المُر اللي هُمّا فيه مش قلة الحيلة والحال المايل اللي عايشين فيه. ثم بلهجة أقرب إلى الاستجداء وبصوت مرتعش لتقريب المعنى إلى الابن: إرجع للحق

يـا ابنـي واتقـي غضـب أبـوك وارجـع عـن الـلي في بالـك وربنـا يهديـك.

إلى هنـا انتهـى الحـوار «الحمضـان» عـلى رأى إبراهيـم الـذي سـارع بالعـودة إلى دوار أبيـه وقـد أضمـر في خبيئـة نفسـه أمـرًا.

واجتمعـوا جميعًـا عـلى طبليـة الإفطـار والأب متصـدر الجلسـة وعـلى السـماط مـا لـذَّ وطـاب مـن الخـيرات مـن الفطـير المشـلتت غارقًـا بالسـمن البلـدي وطاسـة كبـيرة مـن البيـض المقـلي، بـه أكثـر مـن عـشر بيضـات تفـوح منهـا رائحـة الزبـدة، وإلى جوارهـا طبـق منـور بالجبـن القريـش بالطماطـم، ودارت صـواني الشـاي الثقيـل عـلى الجالسـين، الكل عـلى وجوههـم مسـحة مـن الرضـا إلا واحـدًا فقـط أرخـى عينيـه فيـما وُضِـع أمامـه مـن طعـام، وذهنـه شـارد في مـكان آخـر، ولسـان حالـه يقـول: أيـن هـؤلاء مـن الحيـاة الحقيقيـة؟ أيـن هـم مـن معنـى الحيـاة؟ إننـا جميعـا نرعـى كالبهائـم في مرعـى خصـب، ولنـا مـن العقـل كعقـل الغنـم، ولكـن هيهـات إنهـا ليسـت حيـاتي، لم أتعلَّـم لأصبـح كلّافًـا للبهائـم في عبـاءة ابـن العمـدة، لـن أرى الطريـق الصحيـح أمامـي وأغمـض عينـي عنـه. وفي أثنـاء شردوه اسـتفاق عـلى صيحـة مـن الأب: مـا تطفـح يـا روح أمـك سرحـان في إيـه ولّا تكونـش بتحـب. وتعالـت قهقهـات الأب سـاخرًا وختـم سـخريته بقولـه: أحلـق شـنبي إن فلحت.

رفـع إبراهيـم عينيـه محدقًـا في وجـه أبيـه وابتسـامة بلهـاء لا معنـى لهـا ارتسـمت عـلى وجهـه، ولكنـه كان قـد وصـل إلى قـراره الأخـير، وعندهـا فقـط امتـدت يـده للطعـام وبـدأ يـأكل وعـلى وجهـه أمـارات الرضـا.

تـمَّت

العرَّافة

على مدخل مطعم «أندريا» الهرم وتحت ظلال جريد نخلة سامقة، ركنت سيارتها «الجيب»، سحبت المفتاح وأغلقت الباب والتفتت تدخل المطعم، لكنها ويالعجب بمجرد أن وضعت الحقيبة على الكتف كما يضعها سعاة البريد، سمعت من تنادي «تعالى يا نور يا بنت أحلام»

رأتها على البعد تفترش الأرض على قطعة من الخيش المهترئ تحيرت في أمرها، أتُراها من البدو ساكني أطراف العزب المنتشرة، أم غجرية محتالة مرتحلة ترقب أين تجد ضالتها من باحثة عن بارقة أمل لحبيب مجهول أو ضربة حظ تجمعها بسكة سفر أو رسالة من بعيد بالوعد والسعد الوفير، تصل بعد نقطتين أو ثلاث حتى وإن أتت عن طريق نبوءة من الوهم.

بلفته سريعة وأنفاس مكتومة وعينين محدقتين في وجهها الأسمر المنحوت مع كم من الوشم المدقوق على الجبهة والذقن.

وجدت نفسها مشدوهة ومشدودة في آنٍ واحدٍ، كانت الخطوات مرتعشة تنافس في ارتعاشتها سرعة ضربات قلبها.

بصوت مختنق يصدر بصعوبة لا يكاد يُسمَع ، بادرتها:

- لا تخافي واقتربي

اجلسي يا شابة وارمي بياضك

بدون أن تدري وجدت أصابعها تمتد إلى الحقيبة تفتح السوستة الداخلية وأخرجت «كبشة» من الأوراق المالية وألقتها أمامها على قطعة الخيش.

أخرجت المرأة كيسًا من القماش يحتوي عددًا من ودع البحر بأحجام مختلفة، التقطتها جميعًا في كف يدها وبدأ صليل الأصداف وهي تصطك ببعضها البعض.

ألقت الودع أمامها على فرش من الرمال نظرت إليه، وغابت ثواني تحجرت بها العينان، ثم نظرة نافذة تكاد تخترق رأس الفتاة.

عادت وكأنها تحاكي الودع، وقالت:

- الحذر الحذر يا بنت الأوادم.. أحبابك خطر والقلب مش سالم.. الناس حواليكِ كتير، فيهم اللي في الوش أمير وراشق في القلب سكين كَبِير.

رفعت رأسها من بسطة الودع وبصوت أشبه بفحيح الأفعى:

- خلص الكلام ولما تفوت الأيام ويجافيكِ المنام ارجعي هتلاقيني هنا في نفس المكان.

قامت نور من أمامها وبدلًا من أن تدخل المطعم حسب موعدها مع الأصدقاء عادت لسيارتها ساهمة أدارت المحرك وأطلقت للسيارة العنان.

بداخلها تساؤلات لا حصر لها، من أين تأتّى لهذه الغريبة تلك المعلومات؟؟

ربما كانت لعبة اتفقت عليها الصديقات المنتظرات بداخل المطعم، نوع من أنواع الدعابة الثقيلة

أو تراها غجرية ممن يقال عليهن مخاويات ولهن خُدَّام من الجن يحضرون لهن الخفي من الأسرار.

عادت إلى الڤيلا وصعدت غرفتها دون أن تنبس ببنت شفة، لاحظتها دادا أمينة مربيتها، واستغربت عدم ردها السلام.

بعد بضع دقائق لحقتها السيدة التي ربَّتها بعد وفاة أبيها وأمها إثر حادث مروع على طريق الإسكندرية الصحراوي.

بعدها انتقلت وصاية الفتاة إلى بيت عمها وذهبت تعيش تحت سقف بيته ومعها مربيتها دادا أمينة.

العم هو الصحفي والكاتب المعروف «أحمد عزت» أرمل ويحيا وحيدًا بعد وفاة زوجته التي رحلت منذ أعوام بعيدة وتركت له وحيده سليم.

أرسل العم ابنه إلى إحدى أعرق المدارس الداخلية بإنجلترا ويراه مرة واحدة سنويًّا، حين يسافر الأب ليقضي معه الإجازة السنوية يجوبان فيها أغلب العواصم الأوروبية.

دقتان بهدوء على الباب تلاهما الصوت الحاني: الجميل ماله رمينا السلام ولا حدش رد.

رفعت نور عينيها تواجه دادا أمينة التي سرعان ما أدركت بغريزة الأم أن هناك شيئًا ما لا ينبئ بخير يتجلى واضحًا من جحوظ عين الفتاة.

– كفى الله الشر يا بنتي هو انتِ فيكِ إيه، زى ما تكوني شفتِ اللهم احفظنا عفريت.

انقطع الكلام بوصول العم إلى الغرفة مناديًا:

– رجعتِ بدري يا نور، إنتِ مش كنتِ قايلة إنك متغدية برَّه؟

اعتدلت في جلستها وأسرعت إلى العم احتضنته وطبعت على جبينه قُبلة وهي تصطنع ابتسامة حتى لا يرى بإحساسه اضطرابها.

– أنا أصلي قُلت إزاي أفوِّت الغدا مع أجمل عّم في الدنيا عشان أقعد مع حبة عيال، خيرها في غيرها، إوعى تكون سبقتني واتغديت.

ردَّ العم: أنا من الأصل كانت نفسي مسدودة عشان كنت فاكر إني هآكل لوحدي.

واستطرد: يلّا يا ست أمينة جهزي الغدا ليَّا أنا ونونو.

واستدار مغادرًا الغرفة..

اقتربت السيدة من الشابة، وضعت كفها بمنتصف ظهر نور وأخذت تربت قائلة: مين مزعَّل بنتي الحلوة وخطف لون الورد من خدودها؟

حينها أجهشت نور بالبكاء وهي ترتعد كطفل مذعور يلتمس الحماية بداخل أمانه الوحيد حضن أمه.

بعد أن هدأتها أمينة حكت الفتاة تفاصيل ما حدث، إلى أن عادت للمنزل.

- إنتِ برضو تصدقي النصابين وبتوع الجلا جلا، دي سبوبة يا بنتي بيتعيشوا منها.

- لكن يا دادا -قاطعتها نور- هي عرفت منين اسم ماما دا ماحدِّش يعرفه خالص من أصحابي دا على افتراض إنهم هُمَّا اللي عملوا فيَّا المقلب دا.

وعلى الرغم من الابتسامة المطمئنة على وجه المربية إلا أن القلب سكنته رهبة أخفتها ببراعة واستطردت:

- يلّا يلّا بلاش كسل، عمك قاعد مستني الغدا، وانتِ كمان كُلي لقمة ترد الدموية في الوش الجميل دا بدل ما هو أصفر زي الليمونة كده.

وغادرتها إلى المطبخ والبال مشغول يعاود كلام السيدة الغريبة في البال.

دخلت المطبخ وقد شرد ذهنها عائدًا لسنوات بعيدة مضت قبيل وفاة والد نور ووالدتها.

حين كانت الفتاة مجرد طفلة صغيرة تلهو وتلعب دون أن تدري من أمور الدنيا والصراع الدائر بين الأب والعم نتيجة استئثار الأخير بميراث مشترك من الأراضي والتي دخلت في خريطة حددتها الحكومة فتسارع ثمن الأرض ليصل إلى ملايين الملايين من الجنيهات.

فما كان من العم وهو الصحفي الكبير المعروف بقوة علاقاته وتشابكها مع مراكز قيادية إلا أن وضع اليد على الأرض كاملة مع ادعاء أن الجد كتبها بيعًا وشراءً للابن الأكبر خشية طيش ابنه الأصغر والد نور حيث أنه كان كثير الوقوع في المشاكل وإحداها زواجه من والدة نور التي كانت تعمل في مجال الفن كراقصة في فرقة فنون شعبية متجولة.

وما تلا ذلك من خلافات ومشاكل وصلت للمحاكم انتهت بوفاة الأخ الأصغر وزوجته في حادث مروع نتيجة انفلات فرامل السيارة أثناء عودتهما من رحلة قامت بها الفرقة إلى الإسكندرية للمشاركة في إحدى حفلات حديقة «أنطونيادس».

كانت الصغيرة نور مع المربية حين وصل العم .

لا تغيب أيٌّ من تفاصيل هذا اليوم الأليم من ذاكرتها.

فتحت الباب وجدته أمامها، وعلى وجهه لمحة من الحزن لم يقل لها سوى عبارة يتيمة:

«هاتي نور وتعالي، إنتوا هتعيشوا معايا من النهارده، البقية في حياتك في المرحوم والمرحومة.»

لم ترتح يومًا لهذا العم، ولكنها أيضًا لم تستطع تفسير التغير الرهيب في طبيعته من الشدة والقسوة التي عاصرتها قبلًا حين كان والد نور على قيد الحياة

لقد رأت دموع الرجل من جبروت أخيه في حرمانه من حقوقه الشرعية والحرب الشعواء عليه وعلى الزوجة الصغيرة، لم تأخذ بقلبه الرحمة على الأخ الصغير وهو يعلم تمام العلم سوء أحواله المادية.. ولكأنه شخص مختلف تمامًا.

استقبلهم في ڤيلته الفاخرة في منطقة المقطم، حيث تطل على أجمل منظر تراه العين.

جهز للطفلة أجمل الغرف وفرشها بما يدخل السعادة والابتهاج على طفلة في عمرها، ألحقها بأرقى المدارس، جاب بها أنحاء العالم أثناء عطلات الدراسة حتى وضعته في مقام الأب وجعلته هي بدورها يشعر أنها الابنة التي لم ينجبها.

كل هذه التصرفات حيرت أمينة، ولكن مع مرور الزمن وتغيُّر طبع الرجل تناست ما سبق.

ربما شعر بتأنيب الضمير تجاه معاملته لأخيه، وأراد تكريم ذكراه في مراعاة الطفلة التي أصبحت بين ليلة وضحاها يتيمة الأبوين.

لعنة الله على هذه الغجرية أو أيّ ما كانت فكلماتها هي التي أهاجت الذكرى وأعادتها للذهن اليوم.

تُرى هل انساقت وراء الكلمات؟ -قالتها أمينة في نفسها- أم أنني ما زلت أرفع إصبع الاتهام بتلك الجريمة البغيضة إلى وجه أحمد عزت طاغية العهد السابق.

لعنت في سرها الأفكار المشتعلة في الرأس.

عادت إلى المطبخ تتابع عملها وأخفت ما بها حتى لا تشعر الفتاة.

أما نور فكلمات العرَّافة ما فارقت ذهنها أبدًا تحاور نفسها: تُرى من كانت تعني بقولها؟

«أحبابك خطر» من لها في العالم من أحباب سوى عمها أحمد أو بابا أحمد كما يرجوها دومًا أن تناديه.. دادا أمينة التي لم تعرف دونها أمًّا ولا أسرة.

اجهدها الفكر وأطاح بالنوم بعيدًا حتى أشرق النهار وهي تتقلب في فراشها دون هوادة.

كانت تنتظر بزوغ ضوء الشمس بفروغ صبر لتهرع مسرعة إلى تلك السيدة التي أحالت هدوء بالها إلى قلقٍ خاصة وأنها متأكدة تمام التأكد أن لا أحد يعرف اسم الأم سواها ودادا أمينة فقد اعتبر العم أن قصة حياة الأب وزواجه من راقصة انتهت بوفاتهما معًا، وتعتبر سرًّا مدفونًا لا يعلم به أحد.

انطلقت بالسيارة باتجاه حي الهرم ترجو الله أن تجد العرَّافة في موقع الأمس.

كان اليوم جمعة؛ لذا الطريق خالٍ من المقطم إلى الهرم، وكانت إطارات السيارة تنهب الأرض نهبًا للوصول لمبتغاها.

أخيرًا وصلت، لمحتها من بعيد، ركنت السيارة وبدأت في الاقتراب وكلها تحفز.

دون أن ترفع المرأة رأسها فاجأتها بصوتها الخافض الذي يشبه الحفيف:

-كنت عارفة إنك جاية يا صبية، وجيت لك قبل المعاد بمعاد..

قربي وقدام الودع اجلسي، طلباتك إيه يا نور؟

- عاوزة أعرف عشان أرتاح.

رمقتها العرافة بنفس النظرة النافذة لأعماقها، ومدت يدها بودعة وقالت:

- إرمي بياضك ووشوشيها باللي شاغل بالك.

تناولت نور الودعة وهي أشبه بالواقعِ تحت سحر أو لعنة لا يستطيع منها فكاكًا، وسألت:

- أعمل إيه؟

ردت العرافة: وشوشيها طلبك إيه.

مسكت نور الودعة ووضعتها ببطن الكف قالت هامسة: الحقيقة.

في تلك اللحظات كان موبايل المهندس أحمد عزت ينطلق في دقات متتالية تصمت لتعود لصرخاتها مرة أخرى.

أخيرًا أفاق العم من نومه وفتح الموبايل بعصبية مَن أُزعَج من لحظات نوم هنيئة ليصب جام غضبه على المتصل.

كانت أمينة قد استفاقت من نومها حين غادرت نور المنزل فتحت عينيها على صوت غلق الباب بعدها صوت محرك السيارة.

كانت تعلم تمامًا أن فضول نور بالعرافة وأسرارها أخذ منها كل مأخذ، ولكن ما الذى يختبئ في جُعبة عرافة وبعض الودع وحفنة من الرمال.

لن تضغط عليها فلتتركها في لهوها حتى تزهد فيه.

كانت تقوم بتجهيز الإفطار عندما رنَّ الموبايل لم تعره انتباهًا ومنذ متى كان لها اهتمام في هذا المنزل سوى بالصغيرة نور.

لكنها سمعت صيحة فزع قوية تلاها صوت ارتطام شديد وزجاج يتهشم.

ألقت ما بيديها وسارعت تركض على الدرج، لا يوجد في المنزل سواها والرجل الكبير، لا بُد من أن الضجة صدرت من غرفته. دون أن تطرق طَرقات استئذان اقتحمت الغرفة لتجد العم ملقى على الأرض وبجواره الطاولة الصغيرة مقلوبة وقد تهشم بلورها والموبايل ملقى بعيدًا في آخر الغرفة.

اقتربت من الرجل تحاول إيقاظه وجدته مسبل العينين وبعض من اللعاب يسيل من إحدى زوايا الفم..

لم تدرِ ما تفعل سوى الاتصال بنور صائحة: إلحقيني يا بُنيَّتي عمك وقع.

هرعت نور إلى السيارة أدارتها وانطلقت بعد أن قالت للعرافة: لنا في الكلام بقية.

سارعت إلى المنزل، وأثناء عودتها طلبت سيارة إسعاف لنقل عمها إلى المستشفى.

وصلت الثيلا وكان عمال الإسعاف ينقلون المريض إلى السيارة ودادا أمينة واقفة عند الباب لا حول لها ولا قوة.

بادرتها نور: أنا رايحة وراهم يا دادا وهطمنك أول لما أعرف حاجة.

بمجرد وصول سيارة الإسعاف إلى المشفى قاموا بنقل المريض إلى غرفة العناية المشددة، والمسارعة بإسعافة بأدوية سيولة الدم للحد من تدهور الحالة، وإعادة ضغط الدم إلى المعدل الطبيعي.

كانت نور تجوب أمام الغرفة ذهابًا وإيابًا كنمر محبوس بداخل قفص وفي ذهنها كل التوقعات المرعبة التي تخنق قلبها وتثير أشباح الماضي المرعب مرة أخرى.

أيرحل هو الآخر ويتركها كما رحل الوالدان من قبل؟

هل كُتِب عليها اليُتم للمرة الثانية؟ مَن لها سواه؟

ظلت على أفكارها السوداء إلى أن فُتح باب الغرفة وخرج منها الأطباء.

توجهت إليهم لتعلم ما الذي يحدث..

اقتربت بينما هم في خضم نقاش لم تفهم منه شيئًا، وبعدها أشار إليها أحد الأطباء، يبدو أكبرهم سنًّا قائلًا: تفضلي معي آنستي سنتحدث سويًّا.

سار بها بُرهة إلى أن وصلًا أمام غرفة فتح الباب ودعاها للدخول.

- تفضلي بالجلوس.

جلست أمامه وهي تفرك أصابعها من شدة التوتر، من ترموس موضوع إلى جانب المكتب سكب بعض الليمون وناولها الكوب قائلًا: اشربي يا بنيتي واهدئي، الحمد لله أمكن السيطرة على الحالة للآن وهو تحت العلاج لإعادة الضغط إلى مستواه الطبيعي

وتمكنَّا من السيطرة على الجلطة الدماغية، نحن في انتظار إفاقته لنعرف حدود الضرر الذي تسببت به الجلطة.

إن والدك محظوظ أنه وصل قبل فوات الأوان، لدي بعض الأسئلة، أرجو الإجابة عليها..

ما الذي حدث قبل أن ينهار؟؟

أجابت: لا أدري لقد كنت بالخارج حين ورد الاتصال يخبرني بسقوطه أرضًا؛ لذا أنا لا أعلم شيئًا مما جرى.

قال الطبيب: هو الآن تحت مخدر قوي، أقترح عليكِ أن تعودي إلى المنزل لتنالي قسطًا من الراحة ثم عودي وقت الزيارة وسنكون معًا على اتصال إن استفاق قبل وصولك.

كانت تستمع للكلام ودموعها منسابة على الوجه لا تستوعب ما يقال.

ربت الطبيب على رأسها: لا تخافي يا بنتي سيعود بإذن الله كما كان.

غادرت المشفى والصداع يكاد يطيح بها بالكاد كانت ترى أمامها الطريق. دخلت المنزل وجدت أمينة جالسة على أول درجات السلم ورأسها ملقاة على ركبتها وقد حاوطتها بالكفين.

رفعت رأسها بمجرد دخول نور من الباب والاستفهام معلق فوق العينين وعلى الشفاة:

- طمنيني يا بنتي عمك جرى له إيه؟

- جلطة في المخ يا دادا ولسه مش عارفين إيه اللي حصل بالظبط.

الدكتـور بيقـول ضغطـه ارتفـع ارتفـاع مفاجـئ بـس مـن إيـه مـا حـدش عـارف.

أجابـت أمينـة: هـو يـا بنتـي جالـه عـلى الصبـح تليفـون مـا بطَّلش رَن وبعدهـا مفيـش سـمعته بيزعـق، ومـرة واحـدة سـمعت هبـدة عـلى الأرض وإزاز بيتكسر، طلعـت جـري لقيتـه واقـع عـلى الأرض وخـد في رجلـه الترابيـزة وقعـت عـلى الأرض والبنورة ادّشـت.

سألتها نور: طيب كان بيكلم مين؟

ردت: والله يا بنتي ما أعرف حاجة.

جـرت نـور عـلى السـلم، دخلـت غرفة عمهـا تبحـث عـن الموبايل وجدتـه ملقـى عـلى الأرض، وحينـما بحثـت عـلى الرقـم الـذى خابـر العـم صباحًـا، وجـدت أن الرقـم مـن خـارج البـلاد، قامـت بإعـادة الاتصـال، ردَّ عليهـا صـوت باللغـة الانجليزيـة يسـأل عـما تريـد..

شرحـت لـه مـن هـي وأن هـذا الرقـم اتصـل بالعـم صباحًـا وبعدهـا سـقط مغشـيًا عليـه.

اسـتأذن منهـا الرجـل عـلى الجانـب الآخـر مـن المكالمـة لبضـع ثـوانٍ، ثـم تغـيُّر الصـوت فأصبحـت المتحدثـة أنثـى، فهمـت منهـا أنهـا مديـرة مهجـع الجامعـة التـي يسـكن بهـا ابـن العـم، وأنهـا كانـت تبلغـه بخـبر وفـاة الابـن إثـر حـادث تصـادم سـيارة بالدارجـة البخاريـة التـي كان يقودهـا الشـاب، وتعتـذر عـن أن المستشـفى لم تسـتطع إسـعافه وتطلـب منهـم سرعـة الحضـور لاسـتلام الجثـة.

ارتمـت نـور عـلى الأرض باكيـة، لقـد علمـت الآن سـبب انهيـار عمهـا، لم يحتمـل صدمـة الخـبر وسـقط الجسـد العليـل.

بعد بضع ساعات كانت تقف على باب غرفة العناية فقد استفاق العم وإن كانت الحالة لم تستقر تمامًا، دخلت إليه وجدته جسدًا مسجى وحوله خراطيم تمتد من الأجهزة لتصل بأوردته وشرايينه.

نظر إليها وقد اغروقت عيناه بالدمع ورعشة ملحوظة في ذراعه وجانب وجهه، امتدت يديها تمسكان يده برِقّة وهي تقول: ألف لا بأس عليك يا عمي، أنا هنا موجودة معاك مِش هسيبك أبدًا..

خلي بالك من نفسك عشان أنا ماليش غيرك انت بس.

مرت الأيام طويلة بطيئة وخرج العم بعدها من المستشفى على كرسى متحرك تقوده نور عائدين إلى المنزل الذي تم تجهيز الدور الأرضي به بأكمله ليصبح الدور المخصص للعم وطاقم التمريض المعني به.

أنزلت الكآبة ستائرها على البيت بكامل أفراده.

حدث تحسن طفيف في حالة العم فأصبح يستطيع أن يقول عبارات كاملة، ويمكنه التعامل باليد اليُمنى في حدود بسيطة.

سارت الأيام بخطى رتيبة على وتيرة واحدة إلى أن كان يومًا طلب العم أمينة في المكتب، وعندما حضرت طلب منها أن تغلق الباب وتجلس بالقرب منه. تكلم بصوت هادئ حاول قدر الإمكان أن يكون واضحًا وقال:

- أنتِ أحد أفراد الأسرة يا أمينة. وما أنابصدد الآن قوله قد يشب في هذا البيت حريقًا لا ينطفئ مع مرور السنين ولكنه سر عمري وأخشى أن توافني المنية دون أن أبوح به ويرتاح من ثقله القلب.

منذ عشرين عامًا وقبل وفاة المرحوم أبو نور وأمها، كانت هناك خلافات مالية بيننا، وكنت أنا في أوج نجاحي في عملي كمحام، ركبني الفخر والكبر بنجاحاتي، لم أخسر قضية ترافعت بها قطً..

كانت أغلب القضايا التي أترافع بها تخص قضايا المخدرات و الاختلاسات من الجهاز الحكومي؛ مما لفت أنظار بعض أفراد الطبقة المخملية أو كريمة المجتمع كما يطلق عليهم البعض، سعوا لضمي لصفوفهم.

بعد وفاة الوالد كان الميراث أراضي مقسمة بيني وبين أخي -والد نور، وعلمت بما لي من عيون في الجهات الحكومية أن مخطط الأرض معروض على الحكومة لوقوعه في منطقة حيوية؛ لذا ارتفع الثمن إلى أضعاف مضاعفة من سعره الحقيقي حاولت أن أشتري نصيبه منه لكنه رفض، استعنت بما لي من صلات فقمت بتزوير توقيع الوالد على عقد بيع للأراضي لصالحي وجميع الأختام الحكومية صحيحة.

بدأ أخي في رفع قضايا وجرَّنا إلى ساحات المحاكم ليثبت كذب الادعاء الذي ادعيته..

خفت صوته وبدا وكأنه يبكي، وقال:

- قسمًا بالله وجلاله ما كنت أعلم ما الذي يدور بخلد رفاقي لعنة الله عليه، أرادوا أن يتخلصوا من أخي وثرثرته في الصحف وكيف أن أخاه المحامي الألمعي بالاتفاق مع جهات عليا ينتوى سرقة نصيبه من ميراث والده.

وفي تلك الليلة السوداء جاءتني مكالمة تهنئني بإتمام ثبوت ملكية الأرض لي.

وعلمت بعدها أن المرحوم أخي وزوجته راحا ضحية حادث مروع كانت السيارة بلا فرامل، لم يكن من الصعوبة معرفة من المتسبب بتلك الحادثة البشعة.

أنا فاعل رئيسي رغم عدم علمي بالأمر؛ لهذا من وقتها قسَّمت المال مناصفة بين المرحوم ابني وبين نور، وما كنت أنا إلا حارسًا على المال حتى ينتهي الأجل، وكل هذا بعقود موثقة، أما الآن وبعد وفاة المرحوم ابني، الشمعة التي كانت تضيء حياتي، علمت أن الجزاء من جنس العمل، وأن الله أراد أن يذيقني من نفس الكأس التي جعلت تلك البريئة تعانيه.

لم يعد هناك من أحد سوى نور مالكة للثروة بأكملها..

غاية ما أتمنى ألا تفشي السر لنور، لم أعد أستطيع كتمانه بعد الآن ويشهد الله أني أحبها كابنة لي، وأنت الوحيدة التي أعلم أنها مؤتمنة على ابنتي وسرى والأموال بعد رحيلي. أخبريها أنني أحببتها حبًّا يفوق حب الأب واعلمي يا أمينة أنني أُشهد الله أني بريء من دم الراحلين وإن لم أُبَرِّئ نفسي أبدًا فليرحمني ربي ويغفر لي.

غادرت أمينة غرفة المكتب دامعة العين، أغلقت الباب خلفها..

وكانت تلك الليلة آخر ليلة للمرحوم المحامي الشهير أحمد عزت على وجه الدنيا فقد صعدت الروح إلى بارئها قبل بزوغ شمس النهار.

لم تتفاجأ نور برحيله فقد كانت العرافة تهذي بكلمات لم تفهم مقصدها حين قالتها وقبل أن يأتيها خبر سقوط العم، ولكن بعد الأحداث المتوالية ووفاة العم والرسالة التي تركها خصيصًا لها في عُهدة المحامي يرجوها أن تسامحه إن كان قصَّر في حقها في يوم من الأيام، أعادت آخر كلمات العرافة في ذهنها

«اللي فات مات يا بنية، والمستور اتقفل واتختم بختم القبور

لا تسألي عن المخفي ولا تحفري بإيديك بين السطور»

تـمَّت

مولد أمل

بـدأ النهـار مشرقًـا بشـمس سـاطعة مبـشرًا بيـوم دافـئ جميـل، سـارعت جميلـة بإلقـاء الغطـاء جانبًـا وبحثـت عـن «اللكلـوك» الفـرو عـلى شـكل قطـة تحـت الفـراش، ووضعـت قدميهـا الصغيرتـين بـه، وقامـت إلى المـرآة تسـوي مـن خصـلات الشـعر الكسـتنائي الضـارب للشـقرة، كان بحـق شـعرها تاجًـا يميزهـا بطولـه وبخصلاتـه المتموجـة كمـوج البحـر، كانـت في التاسـعة عـشرة، سـمراء خمريـة، والعينـان يتحـير الناظـر إليهـا؛ أهمـا عسـليتان تميـلان للأخـضر، أم خـضراوان يشـع بريـق العسـل منهـما عندمـا تفـرح؟

وبعـد أن ألقـت عـلى شـكلها نظـرة أخـيرة، قامـت إلى شـباك غرفتهـا ففتحتـه عـلى مصراعيـه وعيناهـا تصوبـان نظـرة فاحصـة عـلى الشـارع تبحـث عـن سـيارة بعينهـا أتـراه خـرج قبـل ان تتكحـل العـين برؤيتـه وعندمـا وجـدت السـيارة تحـت إحـدى الشـجرات الممتـدة عـلى طـول الرصيـف في أحـد الشـوارع الجانبيـة مـن شـارع نـوال بحـي الدقـي ابتسـمت ولسـان حالهـا يؤكـدأن لا، لم يغـادر بعـد، هـا هـو الشـباك مـا زال مغلقًـا، لم تتمتـع الشـمس برؤيـة وجـه حبيبـي فلنجلـس أنـا والشـمس في انتظـار طلتـه الحلـوة.

وجلست جميلة تطل من الشباك واضعة كلتا الذراعين متعاقدين تحت ذقنها، وعيناها لا تغادران النافذة المقابلة في انتظار سماع صوت فتح الشباك وإطلالة جميل المحيا. مرت الدقائق طويلة إلى أن حانت اللحظة المباركة و ظهر فتاها وكأنهما كانا على موعدٍ، رفعت رأسها وفاجأها بأجمل ابتسامة.

وهكذا بدأ اليوم رسميًّا بالحدث الرئيسي، ولتبدأ مجريات الأمور كيفما اتفق.

خبطت «دادا وصيفة» ودخلت ولهجة اللوم تغلف الكلمات: وبعدين معاكِ يا ست البنات إحنا مش هنبطل موضوع الشبابيك ده -قالتها بلهجة المؤنب- هي البنات الكويسة تقوم على غيار الريق كده تبصبص للرايح واللي جاي.

لفت جميلة ذراعتها حول وسط دادا وصيفة قائلة: الله يا دادا الشمس حلوة وأوضتي رطوبة حبيت أتشمس شوية.

- على دادا؟ روحي قولي الكلمتين دول للخايب اللي بيتشمس الناحية التانية يمكن يصدقك، وفوقي واخرجي للفطار، الكل صحي والفطار على السفرة يلّا قبل ما بابا يسمَّعك كلمتين ماهمش لازمة على الصبح.

خرجت جميلة من غرفتها واتجهت لغرفة السفرة وألقت تحية الصباح على الجالسين، ورفع الأب المستشار عبد الحميد زيدان رأسه ليخاطب جميلة: إيه يا بنتي كل ده نوم؟

فردَّت الفتاة:

- أنا سهرت أذاكر امبارح واتأخرت في النوم ومحاضرات النهادره بعد الظهر.

تدخلت أختها الصغرى لمياء في الحديث: مذاكرة إيه ده انتِ عمالة تسمعي نجاة لبعد نص الليل، أنا مش فاهمة إيه حكاية الشموع السوداء معاكِ..

وقبل أن تتابع الكلام أطلقت جميلة نظرة نارية متوعدة تجاه أختها الثرثارة لمياء.

وتدخلت الأم في النقاش قائلة: بس كفاية رغي، الأكل له احترامه، كلوا وانتوا ساكتين بلاش دوشة.

وقال الأب موجهًا كلماته لجميلة: أبعتلك السواق إمتى عشان يوصلك الكلية وبصوت خافت دون أن تنظر لوالدها ردت: أنا رايحة مع ليلى يا بابا هي هتعدي تاخدني وهارجع معاها برضو.

وانصرف الوالد إلى عمله واتجهت الوالدة مع دادة وصيفة إلى المطبخ لإعطائها قائمة طعام الغداء.

وأسرعت جميلة لارتداء ملابسها استعدادًا للقاء اليوم المبكر قبل دخول الجامعة، و أثناء خروجها بادرتها الوالدة: إنتِ مش قُلتِ المحاضرة الأولى متأخرة؟ فجاوبت بسرعة محاولة أن تخفي ارتعاشة صوتها: ما هو إحنا رايحين نشتري كتب ناقصة الأول. وأغلقت الباب مسرعة، وأطلقت ساقيها للريح.

خرجت من بوابة العمارة تسرع الخُطى حتى تخرج من الشارع، ودخلت لآخر وهي تنظر إلى الساعة.. لم لا يتحرك عقرب الدقائق اللعين، سمعت من ورائها إطلاق «كلاكس» تعرفه، فابتسمت ووقفت السيارة إلى جانبها ففتحت الباب ودخلت وهي تقول: اطلع بسرعة لاحسن حد يشوفنا.

ابتسم قائلًا: لن أتحرك قبل أن أملي نظري من فاتنتي.

نظرت لوجهه وهي تتمنى لو تطبع صورته في مخيلتها حتى لا تغيب عنها أثناء غيبته خلال سفره لعمله؛ فهو ضابط شرطة عمليات خاصة. أغلب مهماته خارج القاهرة، سار بالسيارة إلى أن وصل بمحاذاة الكورنيش وتحت ظلال شجرة من أشجار الجيزة القديمة التي أكل الزمان من تاريخها وشرب. وقف ونزل ولف للناحية الأخرى وفتح لها الباب قائلًا: ست الحسن والجمال تسمحي تناوليني إيدك الكريمة؟ والتقطت يده يدها لتنزل من السيارة ووقفا أمام النيل، وبداخل كل منهما ملايين المشاعر و الكلمات لا تسع وصف ما بالقلوب.

أزاح خصلة شعر استرخت لتخفي بعض جمال المحيا قائلًا: إلى متى نختلس بعض الدقائق كي نتقابل كل إجازة؟ ليه ما نحددش موعد مع الوالد ونتقدم رسميًّا، أنا مافيش حاجة تمنع ارتباطي دلوقتي، ووالدي يتمنى يفرح بيا النهارده قبل بكرة.

ردت قائلة: بس بابا لا يمكن يوافق أن يبقى فيه أي ارتباط قبل ما أخلص الكلية وانت عارف بابا مش سهل وكلمته واحدة سبق رفض ابن خالتي لما اتقدم الصيف اللي فات.

ردَّ قائلًا: ابن خالتك موجود، يعني ممكن ينطلك كل شوية بحجة شكل أو يحيلك الجامعة وهو ده اللي بابا كِ خايف منه إنما أنا شغلي برَّه القاهرة وبانزل كل شهر كام يوم أجازة يعني مش هعطلك خالص.

أطرقت تفكر وهي بين نارين: أتخبر والدتها بأمر فتاها؟ أم تلتزم الصمت وتدع الأمور تسير على نفس المنوال؟ فهى تخشى

ما تخشاه من الوالد أن يشدد الرقابة عليها فيمنعها من الذهاب للجامعة بمفردها أو يلزمها بمرافقة السائق فتفقد لحظات السعادة التي تقتنصها من الزمن للقاء.

وأوصلها إلى كليتها وودعها وسار إلى حال سبيله.

ودخلت إلى قاعة المحاضرات مبكرة لتجدمن تشير إليها بكلتا يديها واقتربت من ليلى صديقتها المقرَّبة وألقت إليها السلام بوجهٍ خالٍ من المشاعر واستفسرت ليلى بلهجة مسرحية: ما بك فيرجينيا جميلة الجميلات؟

ففترت الشفة الوردية عن ابتسامة باهتة: هتجنن يا ليلى مش عارفة أعمل إيه، أقول لبابا وماما على محمود ولّا أسكت، أنا ما بقتش قادرة أركز وعلى طول خايفة لا حد يشوفني معاه وفي نفس الوقت أنا ما اتعودتش أعمل حاجة في السر طيب ولو بابا شافني هاعرف أرفع عيني في عينه ازاي.

فردَّت ليلى بطريقة مسرحية وكأنها محامٍ في قضية تدافع عن حق صديقتها باستماتة:

- يا سيادة المستشار المحترم عبد الحميد زيدان، إن موكلتي الآنسة المهذبة جميلة ابنة سيادتكم لم تطالب سوى بأبسط حق من حقوقها وهو التمتع بحب المقدم محمود جار الهنا يا ريتني كنت أنا وختمت مرافعتها البلهاء بضحكة ساخرة قائلة: أنا لو منك أروح وأقوله بحبه يا بابا.

وهو يرد عليكِ ويقولك: الجوازة دي مش لازم تتم زي فوازير نيللي بتاعة الخاطبة.

نظرت إليها جميلة بحيرة وصمتت ولم تعقب.

وعادت للمنزل بعد انتهاء اليوم بسيارة والد صديقتها ليلى، وأدارت المفتاح وتنامى إلى سمعها صوت الوالد يتناقش مع والدتها بحدة واضحة في الصالون قائلًا: وهو بسلامته كان شافها فين؟ فردَّت أمها بصوت حاولت أن يكون خفيضًا:

- جرى إيه يا عبد الحميد إحنا جيران والعمارة في وِش العمارة، والناس ساكنين قدامنا من زمن وعمرنا ما سمعنا عنهم إلا كل خير، وبعدين الولد جه من الباب مالفش على البنت من ورانا.

وهنا اسقط في يد جميلة، لقد فعلها حبيبها المتهور، لقد دخل عِش الدبابير برجليه وتركها تلاقي أسوأ مصير.. ماذا تقول لوالدها؟ ترى هل سيواجهها؟

ودخلت غرفتها مسرعة ولحقت بها أختها الصغيرة متسائلة: إنتِ عملتِ إيه؟ بابا راجع من المكتب وأول مادخل سأل عليكِ و شخط فيَّ وقالي ادخلي على أوضتك ما تطلعيش منها ونده على ماما ودخلوا الصالون ومن ساعتها الصوت يعلا شوية ويوطى حبة بس أكيد أكيد أكيد هينوبك من الحب جانب.

بدلت جميلة ملابسها وارتدت بيجاما، وجلست على السرير في انتظار المجهول.

وتعالى صوت والدها: يا جميلة تعالي عاوزك.

قامت تجر قدميها وكأن على أكتافها هموم الدنيا.

طرقت باب الصالون ودخلت دون أن يرتفع وجهها ليلاقي

وجه الوالد، كانت والدتها تجلس على الكنبة بجواره، وجلست هي على أحد الكراسي الجانبية وفاجأها بالسؤال:

- إنتِ تعرفي جارنا المقدِّم محمود اللي ساكن في العمارة اللي قصادنا؟ فهزت رأسها بالإيجاب قائلة بصوت خفيض: صبَّح عليَّ كام مرة في الشارع وأنا رايحة الجامعة وساعات كنت بأشوفه من الشباك، وعاد الأب يسأل ما فيش بينكم حاجة تانية هزت رأسها بالمنفي وهي ترتجف من أن يكتشف الوالد أنها تخفي شيئًا ما. يعني واحد ما يعرفكيش خالص ويجيلي المكتب يطلب إيدك، مش شايفة إنها غريبة. أومأت برأسها أن نعم وردت بصوت لا يكاد يسمع: وأنا مالي بس يا بابا.

ردت الأم محاولة تخفيف حدة غضب الأب: جميلة ما بقتش صغيرة يا عبد الحميد وما شاء الله عليها يتمناها أي حد وانت يتشرف أحسن الناس بنسبك إيه بس الغريب في كده بس.

- الغريب الجرأة اللي بيتكلم بيها وإنه مش هيعطلها عن الدراسة لأنه مسافر في الشغل ومابيرجعش إلا أسبوع كل شهر زي ما يكون عنده فكرة مسبقة عن أسلوب حياتي وفاهم كل حاجة وردَّها.

لم تنطق ببنت شفة ووقف واضعًا يده في جيبه: خلاص روحي أوضتك يا بنت.

فقامت من فورها وغادرت وأغلقت باب غرفة الصالون وراءها.

وعادت الأم للحديث بصوت خافت : وطيب ونهيت الكلام على إيه؟

– قُلتله إديني فرصة أسأل عنك وانت كمان تاخد وقتك عشان تتأنى الجواز مش لعبة يا ابني ومش مادة وبس يعني انت ممكن تكون نفسيًّا لسه صغير عشان تاخد الخطوة دي واستأذن ومشي.

– أنا مش عارفة انت معترض على إيه؟ البنت كبرت ومسيرها تحب وتتجوز وطالما الولد محترم وابن ناس ليه لأ مش أحسن ما واحد ما نعرفلوش أصل من فصل يلف عقلها ويضحك عليها وتتمسك بيه وتخرج عن طوعنا انت عارف شباب اليومين دول عاملين إيه.

سكت لدقائق ثم أجابها: اللي يريده ربنا هيكون، المهم نسأل عنه وعن تعاملاته وأخلاقياته وسط زملائه، وكمان نعرف المستوى الاجتماعي لأسرته وبعدها يحلَّها الحلَّال.

مرَّ أسبوعان على ذاك الحوار ولم يدخر الوالد جهدًا في جمع المعلومات عن الضابط الشاب وأسرته، واجتمعت كل الأخبار أمام الوالدين ولكنهما لم يظهرا أي ردود فعل بينما جميلة جافاها النوم وتخلت عنها الراحة، ورحل سكون البال في انتظار أي أخبارٍ تصل من الحبيب أو حتى تلمح على وجه الوالد أي ملمح تستشف منه أي رد فعل، و لكن لا حياة لمن تنادي.

إلى أن جاء يوم بعد قرابة أسبوع من لقاء الأب بالمقدم محمود وأثناء جلوس الأسرة على مائدة العشاء تم الإعلان عن وقوع حادثة إرهابية أصابت منطقة مدنية في مدينة السويس مع حدوث اشتباكات مع قوات الشرطة وأُصيبت بعض عناصر العمليات الخاصة بخسائر في الأرواح ولم يتم تحديد أعداد الوفيات وأسمائهم.

ووجم الجالسون أمام جهاز التلفاز وكأن على رؤسهم الطير، ولكن رد الفعل المفاجئ كان لجميلة؛ فهذا الموقع هو مقر خدمة الحبيب، فما كان منها إلا أن صرخت صرخة مزقت بها صمت الجالسين وانهارت مغمى عليها، وإسرع الجميع إليها وقاوموا بوضعها على الكنبة مع محاولة إفاقتها بالكولونيا والتدليك ليديها وصدغها، ولكن وجهها أصبح خاليًا من الدماء كالشمع، وأسرع الأب لاستدعاء جار لهم يعمل طبيبًا وجاء الأخير وعمل لها بعض الإسعافات وسأل عن السبب في الحالة فأخبره الوالد أنها سمعت خبرًا مزعجًا عن عملية إرهابية، فأشار بأنها قد تكون صدمة عصبية وأعطاها حقنة مهدئة ونصحهم بضرورة بقاء أحدهم إلى جانبها في حال ما استيقظت.

ونظر الوالد إليها وربت على رأسها ودخل مكتبه ولم يخرج منه إلا صباحًا، لم يتناول إفطاره وغادر دونما أن يراه أحد، وعندما أفاقت جميلة كانت في حالة غريبة، لم تنطق بحرف، وانسابت دموعها دون صوت رافضة تمامًا أي طعام أو شراب.

وأثار تصرف الوالد استغرابًا كبيرًا؛ فلم يكن من عادته الخروج صباحًا دون إعلام أحد ولم يتصل ليسأل عن جميلة وحالتها مما أدى لقلق أكبر.

وآخر اليوم دخل الأب وعلى وجهه علامات الإرهاق الشديد ونادى على زوجته طالبًا منها تحضير بعض الساندويتشات وكوب من الشاي الساخن وإحضارهم إلى غرفة جميلة، وطلب منها أن تتركهم بمفردهما وتغلق الباب.

وفعــلًا قامــت الأم بتحضــير المطلــوب وأدخلتــه الغرفــة وأغلقــت البــاب عــلى الاثنــين، جــذب الكــرسي وقرَّبــه مــن سريــر ابنتــه وجلــس أمامهــا ومــدَّ يــده إليهــا بالســاندويتش قائــلًا:

- ما ترديش إيدي وحياة بابا كُلي معايا.

نظــرت إليــه وقــد احمــرت عيناهــا مــن البــكاء دونــما النطــق بكلمــة ومــدت يدهــا لتأخــذ منــه الســاندويتش، ولكــن يدهــا ســقطت إلى جانبهــا فربــت عــلى يديهــا قائــلًا: مــين ممكــن يفهمــك إلا بابــا، تفتكــري أنــا مــا كنتــش عــارف ولا ماحســتش بعيونــك وهــي بتهــرب منــي لمــا ســألتك يــا حبيبتــي. أنــا حيــاتي كلهــا عشــان مــين، مــش عشــانكم؟ خــوفي مــن أي حــد ممكــن يمــس شــعرة منكــم بــس الحيــاة كلهــا بتبقــى في علــم الغيــب ومــا حــدِّش بيعــرف الخــير فــين.

شــهقت باكيــة وأســبلت جفنيهــا دون كلمــة فقــال لهــا بصــوت خافــت: أنــا لســه راجــع مــن الســويس حــالًا ورُحــت مــكان العمليــة الــلي تمــت.

واقــترب منهــا وضمهــا يقــوة قائــلًا: طيــب مــش تشــدي حيلــك بقــى عــاوزة عريســك يجــي يخطبــك وانــتِ راقــدة كــده.

رفعــت عينيهــا وقــد فتحــت العينــين الحمراويــن عــلى آخرهــما وبــدأت تتلعثــم: هــو.. هــو.. لِسَّــه يعنــي هــو عايــش يــا بابــا؟

فابتســم ابتســامة أبويــة: عايــش وزي الفــل وجــاي آخــر الأســبوع يقــرأ فاتحتــك ممكــن تــاكلي بقــى لأحســن أنــا بــادوخ مــن كــتر الجــوع خــلاص، وألــف مــبرووك يــا بنتــي.

تــمَّت

قصر الهانم

دقَّ بندول الساعة الخشبية العملاقة وتردَّد صداها عميقًا في ردهات القصر الفارغة معلنة السادسة، موعد استيقاظ الخدم لبداية يوم جديد.

وتبدأ رئيسة الخدم -أو هكذا كان لقبها منذ أعوام خلت عندما كان المكان يموج بهم-، في إصدار توجيهاتها لفتاة صغيرة السن لا تتجاوز السادسة عشر ة، أتوا بها من الفلاحين للمساعدة في أعمال الخدمة.

المكان: قصر من العهد البائد في أطراف حي الهرم، وبالرغم من قدمه إلا أن معالم العراقة تبدو عليه من خلال ما تبقى من الواجهات من شغل الزخرفة على حواف الشرفات، والشبابيك العملاقة، و عمودين من الرخام الإيطالي رابطان على جانبي المدخل الأمامي.

وكان القصر من المعالم التاريخية للمكان حتى إنهم أطلقوا على موقف سيارات الأجرة والميكروباصات محطة القصر .

بداخله تعيش آخر سلالة الأسرة العريقة، سيدة تناهز الثمانين عامًا وحدها مع خادمة حبشية عاشت هناك منذ طفولتها وإلى اليوم.

ورجل في العِقد الخامس يقوم على الحراسة وأحيانًا قيادة السيارة التي تتحرك مرة أول كل جمعة من كل شهر لعمل المشوار المقدَّس للهانم وهو زيارة قبر الباشا الراحل.

وكان ذلك اليوم هو يوم الجمعة موعد الزيارة والتي داومت عليها قُرابة أربعين عامًا مُذ انتقل الوالد إلى جوار ربه.

بالرغم من عدم قدرتها على المشي إلا أنها تستعين بالعصا الأبنوسية من جهة وذراع خادمتها، من جهة أخرى نجد الهانم وقد ارتدت التايير الأسود واضعة البروش الماسي وعلى رأسها الإيشارب الحريري الأسود ورغم السن كانت إلى حد كبير مشدودة القوام مع نحافة واضحة.

تُحمَّل السيارة بأكياس الفطير والشُريك وأصناف فاكهة الموسم لتوزيعها على الفقراء.. وتبدأ الرحلة من حي الهرم إلى الإمام الشافعي حيث يقع حوش مقبرة الأسرة.

كان يومًا شتويًّا، غطى السحاب الرمادي صفحة السماء مما ينذر بهطول المطر، ولكن ذلك لم يثنِ الهانم عن المشوار.

كانت على عادتها، شاردة، تنظر من خلال الزجاج على الشوارع المزدحمة بالسيارات، ولكن فكرها كان بعيدًا.. بعيدًا.

ها هي في غرفتها تتزين فاليوم يوم عُرسها على ابن العم، الفارس الذي لطالما كان هو العريس المنتظر حسب اتفاق الأهل منذ الصغر.

سعادتها لا حد لها، والقصر يشع بالأزهار البيضاء والزينات في أرجاء المكان.

إنها وحيدة أبيها وقد وعدها بليلة عُرس من ألف ليلة وليلة.

أثناء انتهائها من الاستعداد للنزول للزفة سمعت طَرقًا قويًّا على الباب!!

أسرعت إحدى الوصيفات لفتح الباب ورأت الفتاة الباشا الكبير فانحنت احترامًا وتراجعت للخلف وأقبلت العروس ترفل في ثوبها الأبيض المرصَّع بالفصوص الماسية على الصدر وعلى رأسها وُضِعَ تاج ماسي من المجوهرات المتوارثة والتي يمتد تاريخها إلى الكنوز التركية حيث أصول العائلة.

وبابتسامة حانية كلها فخر نظر الأب إلى ابنته وقد انعقد اللسان من شدة وقع الموقف عليه فقد توفيت والدتها أثناء الوضع وخرجت تلك الأميرة لتجد نفسها يتيمة الأم ولكنها كانت كل دنياه، لم يقبل الزواج بأُخرى حتى يجنّبها ويلات زوجة الأب.

لذا نشأت طفلة مدللة تأمر فتطاع وعلى ذلك كانت من ألطف الخلق وأكثر البنات أدبًا، أدخلها الباشا إلى أعرق المدارس الداخلية التي تقوم على إدارتها راهبات الفرانسسكان، كانت من المتفوقات دراسيًّا واجادت اللغة الفرنسية والإنجليزية إجادة اللغة الأم.

إلى جانب ذلك برعت في دروس العزف على البيانو والتطريز والرسم، بمعنى أوضح: كانت مشروع زوجة رائعة تتسابق أكبر الأُسَر في خطب وِد الباشا لنيل شرف المصاهرة.

لكـن القـرار كان قـد اتُخـذ يـوم وُلِـدَت الصغـيرة أنهـا مـن نصيـب ابـن الأخ الوحيـد للباشـا لضـمان نقـاء الـدم والحفـاظ عـلى اسـم وثـروة العائلـة.

دخـل الوالـد إلى غرفـة ابنتـه، وعندهـا خـرج جميـع مـن بهـا وتركـوا الأب ينفـرد بابنتـه لبعـض الوقـت قبـل أن يسـلمها لرفيـق العمـر.

- إيه رأيك يا بابا؟

قالتها والفرحة تُزغرد في صوتها.

ردَّ الأب: أميرة من نسل أُمراء أجمل من البدر ليلة تمامه.

تعالي عاوز أقولك كلمتين قبل ما تبتدي حياتك الجديدة.

إنـتِ بنتـي وحيـاتي كلهـا ودلوقتـي هتبقـي زوجـة وأم بـإذن الله وامتـداد اسـم العيلـة هيبقـى مسـؤليتك، إحنـا محتاجـين الأسرة تكـبر وذريتنـا تمتـد أجيـال ورا أجيـال ودا كان الهـدف مـن المصاهـرة الـلي تمـت بينـي وبـين عمـك، إحنـا الاتنـين ربنـا مـا رزقنـاش إلا بيكـوا وعشـان كـده انتـوا تكملـوا بعدنـا وتكـبَّروا الأسرة

والدتـك الله يرحمهـا كانـت سـت النـاس، عُمْـر صوتهـا مـا ارتفـع باعـتراض عـلى أي قـرار أخدتـه، ورغـم إن المـوت خطفهـا منـا بـدري، كانـت نعـم الزوجـة، عمرهـا مـا قـصَّرت في واجباتهـا وكان دايـمًا الخـلاف يبـدأ بيننـا وينتهـي بينـا عمرهـا مـا طلَّعـت سِرنـا بـرَّه حـدود غرفتنـا.

أرجـو إنـك تسـيري عـلى نهـج والدتـك وتبقـي نِعـم الزوجـة وخـير شريكـة حيـاة يتمناهـا زوج.

وعندها أطرقت العروس رأسها ونظرت إلى الأرض وهي تومئ بالموافقة على حديث الوالد، وخرجا معًا من الغرفة وهي ممسكة بأجمل بوكيه ورد أبيض بيدٍ وباليد الأخرى تتأبَّط ذراع والدها.

وبدأت الزفّة والراقصة تنساب بخطوات راقصة على السلم إلى أن وصلت العروس إلى حيث وقف العريس في انتظارها ليصطحبها إلى كوشة العروسين تحيط بها صغيرات في عمر الزهور يرتدين الأبيض ويحملن سلات صغيرة مليئة ببتلات الورد البلدي الأبيض ينثرونها تحت أقدام العروسين.

انتبهت الهانم من أحلام يقظتها على فرملة السيارة نتيجة عبور أحد المارة فجأة أمام السيارة.

وسألت السائق: ماذا حدث؟

أجابها السائق: لا شيء سيدتي، أحدهم يرمي بلاه على الصبح. عادت تنظر عبر الزجاج إلى دنيا لم تعد دنياها وغابت في الذكريات.

إنها الآن ملكة متوجة على عرش قلب حبيب الطفولة وحلم الصبا والشباب، إنها زهرة حان أوان قطافها لتوضع في أجمل مكان.

ولكننا نعلم جيدًا ما يحدث للأزهار بعد انتزاعها من العود الذي يحملها ويمدها بالحياة.

وكانت تلك الليلة هي بحق ليلة امتدت إلى آخر العمر.

فبعد أن زُفت هي والحبيب إلى الجناح المعَد لهما بداخل القصر والذي ضمَّ غرفة خاصة لكلٍّ منهما ملحق بها حمام وصالون استقبال خاص.

جلسَتْ على حافة الفراش مطرقة الرأس خجلًا منه وهو يقترب منها.. جلس إلى جوارها وطبع قُبلة فوق جبينها قائلًا: أنتِ نور حياتي الذي عشت أحلم به يضيء ظلام قلبي، يضمّني قلبك يطمئنني، يساندني ويخفف من ويلات قدري.

رفعت وجهها ناظرة إليه والعينان تحملان ألفَ سؤال ولوعة بالقلب اعترتها لا تدري لها سببًا.

احتضن كفها الناعم ولثم قُبلة حانية عليه ثم قال: لقد كان يومًا طويلًا وقدأُرهِقنا بشدة سأدعك ترتاحين وأراكِ في الصباح.

غادر المكان وبقيت هي لا تدري ما الذي حدث، ترى أبدرَ منها شيء أزعجه أم العكس؟ هل توقع منها ما غفلت هي عنه؟

ظلت على جلستها ودمع متحجر بداخل العين يأبى أن ينساب ليريحها، إلى أن نامت وهي على حاله.ا

أفاقت في الصباح على صوته المحبب يسري في أذنها: حبيبتي، لماذا لم تخلعي ثوب العرس ، كنت أعلم أن الإرهاق قد بلغ بك كل مبلغ لكني لم أتوقع أن يصل لهذا الحد.

هيَّا يا فتاتي الحلوة استعدي، لا بُد من النزول الآن لنستقبل التهنئة من الأهل قبل السفر لرحلة شهر العسل.

ابتسمت ابتسامة خفيفة وقامت وبداخلها إحساس بعدم الراحة، ولكنها استعدت ونزل العروسان وقد تشابكت الأيدي وارتسمت الابتسامة على الوجوه وسط تحيات الأهل والأصدقاء الذين توافدوا للتهنئة ووداع العروسين المغادرين لرحلة شهر العسل في إحدى العواصم الأوربّية.

تعالت الضحكات وبعض القفشات غير البريئة من بعض أصدقاء العريس وهو يجاريهم بنبرة لا تخلو من فخرٍ ذكوري.. وهي ترى وتسمع وتكتفي بابتسامة خجلى كحال العرائس في مثل هذه المواقف.

قطع استرسال أفكارها صوت مرافقتها تقول بهدوء وصلنا يا هانم اتفضلي انزلي.

واستندت عليها للنزول من السيارة وقد أحاط بهم عدد من الأطفال يرجون بعض القروش طلبا للرحمة، فأسرع السائق لنهرهم قائلًا: هنوزع الرحمة بعد شوية ابعدوا دلوقتي عن الهانم وسعوا السكة.

وبخطوات بطيئة صارت تمشي وتتمتم بآيات قرآنية وأدعية للمتوفين إلى أن دخلت الحوش ووقفت أمام المدفن الرخامي الذي يحمل اسم الوالد، ورفعت كفيها تقرأ الفاتحة.

وكما هو المتبع في كل زيارة، تجلس الهانم بعد قراءة الفاتحة على مصطبة من الحجر معَدَّة للزائرين أو لقارئي القرآن في الختمة التي تقام سنويًّا.

ويغلق باب الحوش ولا يسمح لأيٍّ كان بالدخول عليها قبل أن تنهي زيارتها بأن تدق العصا بالأرض عدة مرات لتدخل المرافقة تساعدها للعودة للسيارة ، وأثناء وجودها بالداخل يتم توزيع الرحمة على فقراء المقابر.

لم يرها أحد تبكي الراحل أو سُمِعَ لها صوت نحيب خافت، كانت دائمًا صامتة، شاردة، وكأنها تحيا فى عالم خفيّ لا يراه سواها.

نظرت مطولًا إلى الاسم المكتوب على أعمدة المدفن

«كاظم عبد المجيد الأناضولي»

يا له من اسم ثقيل حملت عبئه عمرًا بأكمله، تُرى لمَ كان نصيبي كل هذا الهمّ والألم من أجل اسمٍ لم يعد يعني شيئًا في عالم الأحياء.

أطرقت برأسها تنظر إلى أحواض الصبار المنتشرة بالمكان.. يا الله كم عشت حياة تشبه هذا النبات نبات أخضر تحيط أشواكه به تظهر به وردة رقيقة تعيش لعدة أيام ثم تجف لتسقط أرضًا والويل كل الويل لمن يحاول التقاطها.

عادت بذكرياتها إلى ذلك اليوم التي غادرته عروسًا جميلة تشع النضارة من قسمات وجهها لقضاء أجمل أيام حياتها.. شهر العسل.

عادت من رحلتها بغير الوجه الذي غادرت به.

اختفى البريق الذي طالما ميَّز نظرة عينيها وحل الشحوب محل النضارة واكتسى الوجه بلمحة من الحزن لم تنجح في إخفاء كافة معالمها.

أول مَن لاحظ التغيُّر كان الوالد ، ولكنه أرجع ذلك للرحلة وإرهاق السفر.

ولكن من أحست بأن هناك أزمة ما تعتريها كانت مربيتها الحبشية والدة مرافقتها الحالية.

استقبلتها هاشة باشة في وجهها وما كان من العروس إلا

أن ألقت بنفسها في أحضان مربيتها تذرف الدمع الثخين دونما صوت، مجرد شهقات مكتومة ترُجهها رجًّا.

ضمتها المربية بقوة وحنان وهي تمسح على شعرها وتتمتم بكلمات لتهدئتها، وأسندت رأسها على الوسادة وهي تقول: شكلك جعانه نوم، نامي يا بنتي وارتاحي ولما تقومي لينا كلام مع بعض.

أرخت الستائر ليسود ظل خفيف يضيء الغرفة بضوء خافت للشمس .

خرجت من جناح السيدة الصغيرة وأغلقت الباب بهدوء.

وأثناء خروجها تقاطعت خطواتها مع خطوات زوج السيدة الصغيرة وبنظرة العارفة لمحت وجهه المكفهر، وتأكدت وقتها أن بين الزوجين خلافًا كبيرًا ، ولكن ذلك ليس بالغريب على المتزوجين حديثًا فخلاف الطبع وارد.

ونزلت إلى المطبخ لتجهيز طعام الغداء ريثما تستيقظ السيدة من نومها.

مرَّ النهار كاملًا ولم تستيقظ النائمة إلى أن اقترب موعد أذان العشاء، وعندها استدعاها الباشا الكبير وأمرها أن توقظها ليتناولوا الطعام جميعًا، دخلت عليها فوجئت بها جالسة تحملق في المرآة التي تواجه الفراش وعيناها حمراوان من البكاء.

جلست بجوارها وتناولت كفَّها قائلة: ليه كده بس يا ست العرايس؟ ده ياما بيحصل أول الجواز لحد ما تاخذوا على بعض وكل الأمور تبقى زي الفل، ولّا فيه حد إدّانا عين ولّا إيه.

قومي يا بنتي اغسلي وشك وفوقي كده، ده الباشا الكبير والبيه مستنينك على السفرة ماحدِّش منهم رضى ياكل من غيرك.

أومأت برأسها بالإيجاب وقالت: قوليلهم يا دادا إني نازلة حالًا.

قامت السيدة الصغيرة من فورها وأعدت نفسها ورسمت على الوجه ابتسامة هادئة استعدادًا للنزول ولقاء الوالد.

وعلى مائدة العشاء اجتمع الثلاثة ودار الحديث عن الرحلة والمباهج التي مرَّا بها، كان الباشا ينصت إلى زوج ابنته وابن أخيه الوحيد في ذات الوقت، وعيناه تتفحصان ابنته وترقبان تعابير وجهها.

لفت انتباهه تلاعبها بأدوات المائدة دون أن تتناول من الطعام شيئًا، وجَّه إليها الحديث:

- مالك يا بنتي، مش شايفك بتاكلي، الأكل مش عاجبك؟؟ تحبي نغيره أو نعمل لك أصناف تانية؟

ردت قائلة وهي ترسل ابتسامة إلى والدها:

- أبدا أنا بخير، بس الظاهر جالي برد في معدتي. شوية دفا وهارجع احسن من الأول.

بعد ان انتهوا من العشاء توجهوا إلى التراس لتناول بعض المشروبات ولعب دور شطرنج بين الأب وابن أخيه الذي اقترح الفكرة.

– هـا يـا عمـي إيـه رأيـك في دور شـطرنج أجـدد فيـه مهـارتي فجميلتـي ليسـت مـن هـواة الشـطرنج وافتقـدت اللعـب.

نظـر الأب إلى ابنتـه وجدهـا أشـاحت بوجههـا تنظـر إلى الحديقـة بوجـهٍ خـالٍ مـن أي تعبـير وردَّ عليـه قائـلًا: – شـطرنج إيـه وانتـوا لسـه عرسـان كـده اخرجـوا اتمشـوا في الجنينـة، مـا فيـش أجمـل مـن نسـمة الليـل وريحـة الفـل والياسـمين السـارية في الجـو.

سـارعت ابنتـه بالـرد: مـش قـادرة يـا بابـا أنـا لِسَّـه حاسـة إني محتاجـة أريَّـح جسـمي وأنـام، خليكـوا براحتكـوا، أنـا طالعـة أرتـاح تصبحـوا عـلى خـير.

اقـترب منهـا زوجهـا وطبـعَ قُبلـة فـوق الجبـين، نظـرت إليـه نظـرة لم تخـفَ عـلى الوالـد، وأصبـح موقنًـا بـأن هنـاك خطـأ مـا بـين الاثنـين.

جلسـا حـول رقعـة الشـطرنج وهـو يحـاول أن يستشـف مـا الـذي يحـدث بينهـما، ولكـن هيهـات كان زوج ابنتـه يبـدأ بطـرف حديـث لا ينتهـي حتـى يلضمـه بآخـر، واسـتمرت السـهرة حتـى كاد الليـل أن ينتصـف، وعندهـا قـال الأب: إيـه يـا عريـس هـو انـت نسـيت إن فيه عروسـة مسـتناك؟ كفايـة لعـب لحـد كـده أنـا جِـه معـاد نومـي، بكرة نكمـل ودلوقتـي كِـشّ ملـك.

وصعـد الوالـد إلى غرفتـه والقلـق يتآكلـه بالقطـع هنـاك شيء مـا بينهـما لـن يمـر يـوم غـدٍ إلا وقـد علمـت بـما يحـدث.

مـرت الليلـة وتلتهـا ليـالٍ أُخـرى لم يتوصـل الأب إلى أي شيء، لم تنطـق الفتـاة بكلمـة تشـير إلى مـا يعتريهـا مـن نوبـات صمـت وشرود،

ولم يبقَ أمام الأب إلا الاستعانة بالمربية لفك سر الصمت المطبق، ومن الناحية الأخرى حارت المربية في حالة الفتاة فهي نائمة أغلب الوقت بلا أي شهية تُذكر.

كما أنها لم تلمح الزوج خارجًا من جناحها ولا مرة، لم تسمع حوارًا يدور خلف الأبواب أو ضحكات.. الصمت ولا شيء غير الصمت.

إلى أن كان يومًا ما، أخبر الباشا المربية أنه يرغب في تناول الشاي بالحديقة مع ابنته وحدها.

وفي عصر ذلك اليوم توجهت الابنة لتجد الوالد يجلس في مكانها المعتاد مُذ كانت صغيرة تحت «البرجولة» الخشبية المغطاة بأزهار الجهنمية الملونة.

ابتسمت وكأن أيامها الجميلة عادت إليها وانحنت تقبِّل جبين أبيها الذي نظر إليها قائلًا:

- كم اشتقت لتلك الابتسامة التي لطالما أنارت لي أيامي.

جلست وبدأت تصب الشاي في الفنجان الفارغ وتقول لا يوجد مكان في العالم أحبه قدر حبي لحديقتنا هذه.

اعتدل الوالد في جلسته قائلًا: ما فيش أخبار مفرحة عاوزة تقوليهالي؟

ارتعشت يدها وتناثر رذاذ الشاي الساخن ليصيب يدها فصرخت متألمة ، وأسرع والدها يتناول من يدها إبريق الشاي وهو يهتف: ماذا بك؟ ما الذي حدث؟

ردت: لا أدري، لوهلة ارتعشت يداي وحدث ما حدث.

كانت تتحدث ودموعها على خدها من الألم، ولكنها كانت تعلم تمامًا أن احتراق قلبها وليست أصابعها هو سبب تلك الدموع .

وهو أيضًا علم أنها دموعُ قلبٍ يحترق.

لم يتمالك الأب نفسه ووجد نفسه يضم صغيرته الغالية إلى صدره وهو يقول لها كلمته المعتادة عندما كانت تبدو في عينيها تلك النظرة كجرو صغير مرتعب من العالم الخارجي يظن الجميع يحاولون إيذاءه:

– مافيش مشكلة مهما عظُمت لا يستطيع بابا حلها، فاهدئي واطمئني واحكي لي.

تلعثمت وبدأت تتمتم بكلام غير واضح فقام من مكانه وجلس بجوارها على الأريكة وسألها وهو يمعن النظر فى عينيها: أهو زوجك؟

خفضت عينيها إلى الأرض ولم تتمكن من مواجهة نظراته واكتفت بالإيماء بالموافقة.

ناولها كوبًا من الماء وأمسك بيدها بقوة وكأنما يقويها على البوح بما تخفيه.

قالت لقد أخبرتني أن الزوجة لا يجب أن يعرف سرها سوى جدران غرفتها هكذا كانت المرحومة أمي ولم أكن لأُخيب ظنك أو أملها فيّ..

قال: ما عنيته المشاكل اليومية وأسرار العلاقة بين الزوجين.

عندها واجهته بعين تحمل تعاسة الدنيا بأكملها.

لقد أقسمت له بأنني لن أبوح بسره ، اختنق صوته وهو يقول يا ابنتي إن كان للتستر على ظلم ينالك فهو قسم باطل، صارحيني بما يحدث.

بدأت تحدثه بصوت مرتعش قائلة:

- أول الأمر تخيلت أن هناك خطأ ما ارتكبته ولكنه كان دائمًا بعيدًا بمشاعره رغم رقته المتناهية معي، وظهر ذلك واضحًا خلال رحلة شهر العسل كان يتركني اليوم كاملًا ويعود ليلًا يحمل معه هدية يقدمها اعتذارًا منه لانشغاله ببعض أعمال تصب في مصلحة الشركة.

ثم لا يلبث أن يستغرق فى نوم عميق، ظننت أولًا أن به علة تمنعه من الاقتراب مني ووصلت قناعتي إلى أن هذا ابتلاء من ربي وعليَّ كزوجة صالحة أن أقبل ما أنا فيه وأدعو الله أن يرفع ما بِنَا من كرب.

ولكن كان في أحيانٍ أخرى يعود تفوح منه رائحة عطر نسائي قوية ، تتآكلني الغيرة ويرى السؤال الغاضب يلمع في العين فيتجاهل ويختلق كل يوم قصة ليتجنب البقاء بجواري.

إلى أن جاءني ذات صباح وطلب مني أن أرتدي أجمل ثيابي للخروج في نزهة قائلًا: أعلم أن بداخلك عددًا لا نهائي من علامات الاستفهام وحان أوان الإجابة.

اصطحبني لتناول الإفطار ودار بيننا الكلام دون أي معنى وأنا أنتظر منه التبرير.

وبعد برهة اقتربت منا امرأة على قدرٍ كبيرٍ من الجمال وعرفني بها قائلًا:

- ميشيل.. زوجتي وأم ابني.

خانتني ساقاي وكدت أسقط أرضًا لولا أنه أمسك بي وقال: لم أكن أريد أن أخفي عليكِ الأمر أكثر من ذلك لك كل الحق في تفسير العلاقة الغريبة بيننا، وها أنا أضع أمامك كل الحقائق وأتمنى أن تجدي في قلبك الجميل مساحة للمغفرة.

أحببت ميشيل مُذ كنت أدرس في السوربون واستمرت العلاقة فترة الدراسة، وعندما حان موعد العودة لمصر واستلام مهام العمل التي ينتظر الوالد أن أنوب عنه فيها، قررت مصارحة والدي بحبي لها

رفض أبي رفضًا باتًا وهددني بحرماني من حقي الشرعي في أي ممتلكات بما فيها ثروة المرحومة أمي حيث أنها دخلت ضمن الأموال المشتركة بينه وبين عمي، والدك.

كما أعلن أنه سيتبرأ مني وسيخفي حبيبتي من على وجه الأرض، خفت من غضبه الأعمى خاصة بعد أن علمت بعدها أن حبيبتي ميشيل حامل في طفلي.

لم يكن أمامي سوى أن أتزوج ميشيل، ورزقني الله بابني آدم و عشت حياة سرية لا يعلم بها أحد وأخفيت القصة كاملة.

عـدت إلى القاهـرة لتـولي المنصـب المـوكَّل إلي ويـأتي بعـد ذلـك الاتفـاق القديـم المـبرم بـين الأخويـن، كنـت أعلـم مـدى الحـب الـذي تكنينـه لي في قلبـك، ولكنـك كنـت بالنسـبة لي أغـلى أخـت، والمشـاعر التـي أحملهـا لـك هـي مشـاعر أخ لأختـه ، كـم حاولـت أن أخـبرك بالحقيقـة قبلهـا ولكنـي لم أسـتطع.

أعلـم أن مـا أقولـه يعـد صدمـة وغشًـا وتلاعـب ، ولكنـي تمنيـت أن تغفـري لي بـما يحتويـه قلبـك الرائـع مـن الحـب، وأسـتحلفك بـالله ألا يصـل خـبر زوجتـي وابنـي إلى والـدي، وإلا قـضى عليهـما؛ ففكـرة نقـاء الـدم وثـروة العائلـة هـي الفكـرة المسـيطرة عـلى تفكـير ومعتقـدات والـدي وعمـي.

نظـرت إلى أبيهـا وهـي ترتعـش قائلـة: أحببتـه منـذ أن عرفـت للحـب معنـى، لم أتحمـل الصدمـة فغبـت عـن الوعـي ولبثـت تحـت العنايـة الطبيـة عـدة أيـام، وعندمـا أدركـت مـا يجـري حـولي لم يكـن بيـدي حتـى فرصـة للرفـض فحبـه تملـك قلبـي، ولا أتخيـل الحيـاة دون وجـوده فيهـا بالرغـم ممـا كان منـه.

أخشـى عليـه مـن غضـب والـده ولا أريـد فقدانـه ولـو عشـت عمـرًا كامـلًا مجـرد صـورة في فسـتان زفـاف معلقـة عـلى حائـط.

لـن أسـمح لغـيره بالدخـول لقلبـي، ولـن أقبـل أن أفـرض حبـي عليـه، وانتويـت أن أسـتمر زوجـة صوريـة أمـام النـاس وأختًـا بينـي وبينـه، كل مـا أتمنـاه أن يـأتي يـومٌ مـا يتحـول حبـه لي إلى حُـب رجـلٍ لامرأتـه ولـو أمضيـت العمـر عـلى هـذا الأمـل.

قامـت تسـتند عـلى ذراع والدهـا الصامـت مـن هـول مـا سـمع،

وسار بها إلى أن أوصلها إلى غرفتها وعاد هو إلى غرفته مكلوم القلب لأول مرة لا يدري ما عليه أن يفعل، رد الفعل الوحيد السليم هو الثورة على ابن أخيه وربما الفتك به، وليكن ما يكون.. فليخسر الدنيا والأخ، وليذهب اسم الأسرة والثروة إلى الجحيم.

أيثأر لحق ابنته التي تم التلاعب بها في لعبة حقيرة لإنسان أناني استغلها أسوأ استغلال، أم يكتم ثورته في قلبه حتى لا يؤلمها أكثر ويقضي على حلمها بأن يحبها ذلك الانتهازي الحقير؟؟

تمدد على فراشه وقد نال منه الإحباط والألم أقصى ما يستطيع إنسان احتماله.

وفي اليوم التالي تأخر الوالد في الاستيقاظ فدخلت عليه ابنته لإيقاظه وجدته ملقى على الفراش لا ينطق، وشخَّص الأطباء الحالة جلطة في المخ أثَّرت على مراكز الأعصاب في الجسم .

لم تسامح نفسها أبدًا على ماحدث للوالد الحبيب، وأصبح هو كل حياتها، تستيقظ مبكرًا لتذهب إليه فتصرف الممرضة التي تتابع حالته أثناء الليل لتنال قدرًا من الراحة وتلزم هي جانبه تطعمه وتحرص على راحته إلى أن يأتي الليل فتعود الممرضة لمتابعته.

أما الزوج فقد كان يمضي وقته متنقلًا بين مصر وباريس إلى أن توفى والده وقام بتصفية الأعمال بينه وبين زوجته العذراء، واستقر في باريس مع زوجته وابنيه بعد أن أنجب ولدًا آخر.

لم تتغير مشاعره تجاه ابنة عمه و زوجته المقهورة لأنها لم توجد أصلًا.

أخيرًا انتقل الباشا الكبير إلى جوار ربه وأغلقت الهانم عليها أبواب قصرها، واكتفت بابنة مربيتها تعيش معها وتعتني بها لتكمل عمل والدتها التي كانت قد بلغت من العمر سِن الكهولة عندما أسلمت الروح إلى بارئها.

يا لها من رحلة عمر طويلة مريرة تلك التي عاشتها، وأمل تبخَّر دون رحمة..!

وعندما تأخر الوقت ولم تستدعِ الهانم مرافقتها، طرق السائق على الباب الحديدي للحوش عدة مرات ولكن ما من مجيب، فاستأذن بصوت راعى فيه الارتفاع بعض الشيء ليوقظ الهانم من شرودها ودخل يقول:

- الوقت اتأخر يا هانم وحضرتك أكيد محتاجة ترتاحي.

ولكنها لم تلتفت إليه، فخرج ونادى المرافقة لتوقظها من سباتها.

ولكنها عندما واجهتها وجدتها مستندة إلى الجدار وقد سقط ذراعاها إلى جوارها، اقتربت منها تهزها فمالت بكل جسدها عليها..

علمت عندها أن سيدتها الهانم لم تعد من أهل الدنيا بعد أن عاشت عمرًا طويلًا على هامشها.

تمَّت

رسالة إلى حبيب

أخذ طريقه المعتاد عبر الأزقة والحارات حاملًا على كتفه حقيبة مكتظة بالأخبار.

أخبار مَن سافر للبعيد وما فعلته به غربته، وأخيار تنتظرها من تتلمس في الكلمات المكتوبة أنفاس فتى سافر ابتغاء حياة أفضل وترك أمًّا تتقاذفها أمواج الخوف عليه.

وربما أخبار تحمل همسات شوق المحبين لبعضهم..

وأخبار، وأخبار لا تخلو الحقيبة منها أبدًا.

يطوف النهار بنشاط لا يكل ولا يمل، غاية المراد أن يرى ملامح الأمل على الوجوه حين تصل الأمانة إلى من ينتظرها.

ويعود آخر اليوم بحصيلة منها لليوم التالي.

يعود إلى سكنه البسيط والقدمان تستجيران طلبًا لبعض الماء الدافئ بالملح يهدئ من أوجاع وإرهاق المشي طيلة النهار.

وحيد هو بلا أهل ولا زوجة، ومن تلك التي تقبل بحياته المتواضعة أنه يحب عمله ويعلم تمام العلم أنه لا يدرّ دخلًا يحيا

مـن خلالـه في بحبوحـة مـن العيـش فـما بالـك بزوجـة وربـما أولاد إن شـاء المـولى عـز وجـل.

بعد التهام لقيمات بسيطة وكوب من الشاي الساخن.

يضجـع عـلى سريـر خشـبي أكل الزمـن مـن أخشـابه فأصبـح يتمايـل تمايُـل الأرجوحـة عنـد الإتيـان بـأي حركـة عليـه.

يُخـرج مـن تحـت الوسـادة خطـاب اِصْفَـر لـون ورقـه واهـترأ مـن كثـرة مـا تناولتـه أصابـع اليـد.

يفتحه برقة شديدة وكأنما يتلمس وجه حبيبة.

إنه سر عمره

منـذ سـنوات عديـدة لا يـكاد يذكـر متـى، في بدايـة عملـه شـابًا في مقتبـل العمـر و بعـد تحديـد منطقـة عملـه في حـي الحلميـة، خـرج وقـد اعتـلى حـزام الحقيبـة أعـلى الكتـف يسـلم مـا لديـه مـن أخبـار إلى أصحابهـا وقـد رتـب الخطابـات بعنايـة حسـب خارطـة الشـوارع الأقـرب فالأبعـد ومـا يليـه.

أنهـى الجـزء الأكـبر وجلـس يلتقـط أنفاسـه عـلى أحـد المقاهـي مصفقًـا بيـده قائـلًا: شـاي تقيـل سـكر بَـره

وأخـرج المتبقـي مـن الخطابـات يـرى مـدى قُربـه مـن العناويـن، أثنـاء البحـث لفـت انتباهـه خطـاب بـلا عنـوان أو اسـم مرسـل أو مرسـل إليـه مجـرد ظـرف خـالٍ مـن الكتابـة وبداخلـه مكتـوب.

قلبـة بـين يديـه قربـه لأنفـه بحركـة لا إراديـة وجـد لـه رائحـة عطـر

جميلة تبسم في قرارة نفسه قائلًا: ياللعشق وأفاعيله لقد ذهب الحب بعقلها فألقت بالخطاب دون أن تكتب العنوان.

أعاد الخطابات إلى الحقيبة حين وصل الشاي ارتشفه بسرعة وقام مسرعًا لإتمام بقية عمل.

عاد بعد أن أنهى عمل اليوم يجر قدميه جرًّا إلى الحد الذي جعله يلقي بجسده المتعب على الفراش دون أن يخلع منها شيئًا سوى الحذاء وراح في نوم عميق.

استيقظ وصوت المؤذن الصادر من مسجد بشتاك الناصري القريب من غرفته في درب الجماميز يتعالى بصوت أذان المغرب.

رفع رأسه لوهلة يجول بنظره في الغرفة وقد انسحب منها ضوء الشمس وسرت في الهواء رائحة التراب المختلط بالماء، وصلته من نافذة غرفته نتيجة عادة أهل الدكاكين برش الماء أمام محالهم لبعث الرطوبة بعد نهار قائظ الحرارة لسوء حظه أن النافذة الوحيدة التي تربطه بالخارج تقع بمحاذاة أسفلت الشارع وأقدام الرائحين والغادين عليه.

قالها في نفسه هما يرطبوا على روحهم وإحنا لينا العفار والخنقة، وجد أنه ما زال مرتديًا بزة العمل فخلعها. علَّق الجاكيت على مسمار دقه في الحائط لهذا السبب وأحكم فرد بنطاله بعناية ورفع مرتبة السرير ووضعه أسفلها ليضمن أناقة زيه ليوم غدٍ ثم ارتدى جلبابه المقلم طوليًا وعلى رأسه وضع طاقية نفس التقليمة واللون.

توضأ وصلى المغرب ثم جلس القرفصاء على الأرض أمام الطبلية الخشبية رافعًا الجريدة الموضوعة فكشف الغطاء عن طبق من الصاج به بقايا الصباح من العسل والطحينة،

وآخـر بـه قطعتـان جبنـة قديمـة، وبعـض أعـواد الجرجـير مـع رغيفـين عيـش بلـدي وبـدا يـأكل وهـو يصغـي لحـوارات الباعـة في الشـارع.

أنهى طعامـه وتنـاول القُلـة مـن الصينيـة وتجـرع بعـض جرعـات المـاء حمـد ربـه وقـام يعمـر الباجـور لـزوم الشـاي التقيـل الـلي يعـدل الدمـاغ.

أخـرج لفافـة تبـغ أشـعلها وبـدأ يحتـسي الشـاي وهـو يتمتـم بصـوت يسـمعه هـو فقـط:

– والنبي هُمَّا البهوات يزيدوا إيه عن العبد لله.

اضجـع عـلى الفراش وأمسـك بيـده الحقيبـة، أعـاد ترتيـب الخطابات جعـل الخطابـات التـي لم يتسـلمها أحـد في موقـع خـاص مـن الحقيبـة ورتـب البقيـة، ولكنـه كان يبحـث عـن شيء آخـر .

إنـه يعلـم تمـام العلـم أي أمانـة وضعتهـا هيئـة البريـد عـلى عاتقـه ولم يكـن أبـدًا ليخـون تلـك الأمانـة.

لكنـه خطـاب بـلا اسـم ولا عنـوان، وربـما يحتـوي عـلى أسرار تـؤذي كاتبـة الرسـالة إن أعادهـا لمكتـب البريـد، قـد يتلقفـه مـن لا يراعـي في الله حُرمـة، وعندهـا تتداولـه الأيـدي فيصبـح المكتـوب مشـاعًا.

لا وألـف لا، إنـه هنـا في الحفـظ والصـون وكلماتـه لـن تغـادر هـذه الغرفـة.

أخـرج الظـرف مـن بـين الكومـة كأن يـده تحسسـت ملمسـه فحفظتـه، قرَّبـه مـرة أخـرى يتشـممه حتـى أحـسَّ كأن العطـر نفـذ إلى داخـل صـدره.

وبأصابع مرتعشة وأنفاس مضطربة بدأ في فتح المظروف.

خطوط رقيقة كخطوات عصفور لا يكاد يمس الأرض ليرتفع، غامت عيناه وهو يحدق بالورقة.. ما أحلى الخط! قالها في نفسه لعلَّ جمال الخط استمد روحه من جمال اليد التي جادت به على الورق.

بدأ يقرأ بشغف وكأنما هو المقصود بالخطاب:

حضرة الحبيب المحترم،

أعلم أنك لا تدرك من أمري شيئًا، ولكن أقسم لك إن كل حرف تقرأه يُكتَب مع دقات قلبي الذي يحبك.

رأيتك أول مرة مقبلًا تدق بحذائك أرض شارعنا و مررت تحت نافذتي تابعتك عيناي وأنت تمضي وكأن الروح غادرتني و هرعت خلفك.

قد لا تصدقني فيما أكتب ولكنها الحقيقة بعينها. جافاني النوم وعافت النفس الطعام .

ومن يومها ما فارقت النافذة إلا تحت إلحاح أمي أو لزجرة من أبي للدخول للفراش.

مرت أيام طوال قبل أن ألمح وجهك الجميل مرةً أخرى.

يومها ارتفعت عيناك بدون قصد فالتقت العيون للحظة، لكنك سارعت بخفض رأسك وحرمتني من أجمل عيون سرقت منّي فرحة عمري كله.

وفجأة وبدون سابق إنذار.. طرقات عنيفة على الباب.

جفل وتسارعت ضربات قلبه كمجرم ضُبِطَ متلبسًا بجُرم مشهود، أسرع بوضع الخطاب بداخل الظرف وأخفاه بداخل وسادته وقام مسرعًا يضع خفه وهو يقول: بالراحة شوية يا اللي بتخبط هي الدنيا طارت.

فتح الباب ليجد أحد صبيان الجزارة الواقعة بناصية الشارع، فوق رأسه صينية بها عدة أطباق تفوح منها رائحة يسيل لها اللعاب.

والولد يصيح: يلّا يا أفندي الأطباق نار فوق دماغي، الحاج بيسلم عليك وبيقولك بالهنا والشفا دي من عقيقة ابنه.

ردَّ وقد ذهب الضيق وحل محله ابتسامة طيبة:

- بلغ المعلم وقوله ألف مبروك يتربى في عزه، هدية مقبولة و ربنا يكتر من أفراحكم.

تناول الصينية من الصبي وأغلق الباب خلفه وأنزلها على الطبلية وهو يتفحص الأطباق قائلًا: صحن فتة باللحمة والدمعة يردوا الروح. لم يستطع مقاومة الرائحة فأكل معلقتين من الطبق وأجل التهام البقية لوقت آخر.

ثم عاد إلى الخطاب وهو يقول: يا بخت المقصود بالكلام الحلو ده. ثم أكمل القراءة:

«ظللت أنتظر مجيئك يومًا بعد يوم، وأقول لنفسي علَّه يخطئ ويلقي بنظره إلى الأعلى ولو صدفة غير مقصودة.

لكنك كنت دائمًا مثالًا للاحترام والأدب.

تكـرر قدومـك لحيِّنـا في أوقـات محـددة كنـت أعدهـا مـن أجمـل لحظـات العمـر.

وأسـأل نفـسي: تـرى هـل تجمعنـا الظـروف لسـبب أو لآخـر؟ أو ربـما نلتقـي صدفـة يحيكهـا لنـا القـدر فتشـعر بـما يعتمـل في النفـس مـن مشـاعر؟ اعلـم أني أحببتـك حبًّـا ملـكَ عـليّ نفـسي وأدعـوا ربي أن يجمعنـا معًـا في يـوم مـن الأيـام.

إلى أن يحقق لي ربي ما أتمنى، أودعك حتى نلتقي.

والسلام ختام

إلى هنـا انتهـت كلـمات الخطـاب وجـد نفسـه يمسـح دمعـة سـقطت رُغـمًا عنـه، لقـد أثَّـرت بـه الكلـمات أيُّـما تأثـير

تمـدد عـلى فراشـه وهـو يحـدق في سـقف الغرفـة لفـت نظـره فراشـة صغـيرة تحـوم حـول الضـوء في مـدارات دائريـة.

للحظـة تخيـل أن حالـه مشـابه لحالهـا.. يـدور ويـدور، تـرى هـل هنـاك نهايـة أفضـل مـن نهايـة تلـك الفراشـة تفنـي حياتهـا رغبـة منهـا في الوصول للضـوء، وعندمـا تفعـل يحرقهـا الضـوء فتهـوي صريعة لشـغفها.

تُـرى هـل يمكـن أن أحظـى بمثـل تلـك الحبيبـة الرقيـق ، لعـلَّ هنـاك مـن تراقبنـي مـن إحـدى النوافـذ وأنـا أسـعى بـين الأزقـة والحـارات أجـوب الشـوارع مـن حـي لآخـر ومـن بيـتٍ للثـاني أسـلم هـذا خطابًـا وهـذه حوالـة وأخـرى تلغرافًـا.. مـن يـدري.

ومنـذ تلـك الليلـة قـرر أن يبحـث عـن فتـاة خيالـه هـو الآخـر يجـول محدقًـا فيمـن حولـه، يـدور ويـدور علَّـه يلقاهـا، وعندمـا يأخـذ منـه التعـب كل مأخـذ يجلـس يريـح قدميـه في أقـرب مقهـى، ينـادي:

«شاي تقيل سكر بره»، ثم يعود من عمله يستلقي على فراشه، ويخرج كنزَهُ الثمين قرأه مئات المرات أبدًا لم يكتفِ من كلماته.

أحبَّه أهل الحي لما أبداه من دماثة وحُسن خُلق واحترام للكبير والصغير، فرض على الجميع احترامه رغم ظروفه البسيطة.

كانت الخَطَّابات يسعين إليه وكل واحدة منهن تحمل إليه عرضًا بالزواج، مرة أرملة زَي فلقة القمر وولّادة، عندها ولد وبنت ومش هتكلفك لا أبيض ولا أسود.

وأُخرى بنت بنوت وأبوها ماحيلتوش غيرها صحيح هي كبيرة حبة بس مش باين عليها.

كان يرد بعبارة واحدة: لِسَّه النصيب ما جاش.

وفي أحد الأيام وأثناء سيره في أحد شوارع بِركة الفيل، سقط بمحاذاته قطعة من غسيل مبتل فلتت من يد من تضعها على الحبل.

انحني والتقط القطعة الملقاة ورفع بصره إلى النافذة مشيرًا بالقطعة، وقبل أن يفتح فاه بكلمة، رآها وقد مالت تنظر إليه برجاء وقطعة الغسيل بين يديه.

عندما وقعت عيناه عليها منحته أجمل ابتسامة حلم بها يومًا وكانت عيناها تنظران وفي أغوارهما تساؤل يتحرق شوقًا إلى إجابة:

تُرى هل قرأت كلماتي يومًا؟

تـمَّت

حدوتة آخر الليل

أسدل الليل ستائره الحريرية على نوافذ المنزل الصغير المطل على الساحة التي لا تخلو من الباعة والمارين طيلة النهار إلى أن يحين وقت المغارب فيعود كلٌّ إلى مستقره، ويخلو الميدان من الجميع ماعدا بعض القطط تنتظر خروج الفئران من جحورها لتعود هي الأخرى بحصيلة سمينة تقتات عليها مع صغارها..

إنه وقت النوم هلمي يا فتاتي..

تسمعها الصغيرة فتسرع وتلقي بنفسها في أحضان أمها، كم اشتاقت طوال النهار لضمة الصدر الحنون وتربيت اليد الحبيبة تملس على الجبهة وتداعب خصلات الشعر الملتف كالحلقات على الوجه الطفولي الجميل.

إنها أحلى أوقات اليوم بالنسبة لهما، تلك الدقائق الذهبية يقتنصوها من الليل في حضن بعضهما البعض.

الأم تخرج من طلعة النهار للعمل تترك الصغيرة في بيت إحدى الجارات تحملها وهي نائمة لتستيقظ الصغيرة دائمًا على ضجيج الأولاد يتصايحون.

تنكمش منزعجة خائفة من مشاكسات الصبيان وترتعد من صراخ الجارة عليهم فالعصا لمن عصى أما بالنسبة لها فكان التهديد في حالة البكاء أو عدم تناول كامل الطعام المقدَّم لها بالدخول إلى غرفة الفئران ليتناولوا منها ما يلذ لهم فيقضم أحدهم منها إصبعًا وآخر يتلذذ بقطعة من الأذُن أو يخمش الوجه أو الأنف.

كانت تزدرد الطعام بدافع الخوف لا الجوع تدعو الله أن يأتي المساء وتعود أمها لتنقذها من المصير الذي ينتظرها تحت رحمة تلك السيدة المرعبة.

تعود الأم وعلى وجهها أمارات الإرهاق تصطحب الطفلة بعد أن تضع في يد الجارة بضعة جنيهات هي قيمة استضافتها لابنتها.

تخفي الصغيرة وجهها في صدر الأم حتى لا تقع عيناها على الست الشريرة كما تطلق عليها ويعودان لمنزلهم.

تدخل الأم البيت وهو عبارة عن غرفة واحدة فقط هي كل دنياهم، والصغيرة تتشبث برقبتها حتى تكاد تخنقها.

ما بك يا بنية ، لقد وصلنا إلى غرفتنا، اهدئي واطمئني. بعد لحظات تهدأ الفتاة وهي تقول: أمي لمَ تتركينني في بيت الشريرة؟ إنها تدعو الفئران لتأكلني إن لم أتم الطعام أو إن طلبت منها أن تدعني أعود إليك.

أجابت الأم وابتسامة حزينة على الوجه والحزن يقطر من الأنفاس: إنها ليست بشريرة ولكنها تريدك أن تأكلي طَعَامِك لتكبري وتصبحي أجمل البنات كأميرات الحكايات.

ردت الصغيرة بابتسامة جزلة: نعم نعم، سأفعل والآن جاء وقت الحدوتة.

أجابت أمها: انتظري دقائق، سأتناول الطعام ونكمل الحكاية.

أحضرت صحنًا به قطعة من الجبن الأبيض وبعض أعواد الجرجير وشقة من الخبز التهمتهم التهام المتضور من الجوع وأتمت وجبتها بكوبٍ من الشاي أضفى دخانه جوًّا من الدفء على الغرفة الخاليةمن الأثاث إلا من سرير خشبي قديم وخزانة متهالكة لوضع بعض الثياب، وطبلية خشبية أكلَ الزمان عليها وشربَ..

سارعت الفتاة: لقد فَرغْتِ من الأكل يا أمي، فلنبدأ الحكاية.

تتمدد الأم إلى جوار الصغيرة بعد أن توسدت الأخيرة ذراع أمها وبريق عينيها يقاوم النوم لسماع بقية الحكاية.

– كان يا ما كان يا سادة يا كرام ما يحلى الكلام إلا بذِكر النبي عليه الصلاة والسلام.

ترد الصغيرة: عليه الصلاة والسلام.

قالت الأم: وصلنا في الأمس إلى أن الأمير «همام» عندما تزوَّج الأميرة «بدر التمام» وأقامت البلاد الأفراح والليالي الملاح عاش الاثنان أجمل الأيام وحلما سويًّا أجمل الأحلام ورزقهما الله بالجميلة «قمر الزمان».

خرج الأمير في أحد الأيام يصطاد بعض الغزلان وأثناء العودة هجم عليه بعض الغلمان وحملوه إلى رئيسهم منصور عين الثعبان هكذا أسموه لأن عينه اليمين زَي عيون الثعابين وكمان كان لئيم مكار.

انتظرت الأميرة بدر التمام عودة الأمير همَّام لكنه غاب أيامًا وأيامًا إلى أن قررت أن تخرج هي للبحث عنه.

ونظرت الأم للصغيرة فوجدتها تغط في نوم عميق فأحكمت عليها الغطاء وأسلمت الرأس للسُبات.

استيقظت الأم مع تعالي صوت أذان الفجر من مايكروفون المسجد، فقامت وحملت فوطة بشكير وخرجت بهدوء من الغرفة للحمَّام الخارجي الذي يخدم مجموعة الغرف المتجاورة، توضأت وعادت مغلقة الباب بهدوء كي لا توقظ الصغيرة.

بعد أن أتمت صلاتها رقدت إلى جوار الطفلة وقد رحل النوم مع من رحل إلى غير عودة.

رحلت بخيالها في دروب الذكرى.

نعم لقد كانت أجمل البنات وكان هو خير الشباب، أحسنهم خُلقًا وأشدهم فتوة، محبوبًا من الجميع ومحط أنظار فتيات الحي.

كان من أحسن نجاري المنطقة، محترم،كسيب، ومن أجمل صفاته أنه كريم طيب المعشر.

كثيرات يخطبن ودَّه ويحاولن استمالته لكنها هي من وقع اختياره عليها، جعلها أميرة على عامة البنات.

ما أبخل الدنيا حين تشح بعد الجود.

رزقا بالصغيرة وأسموها بهية، فقد كانت بهية الطلعة ضاحكة الثغر .

وظنوا أن الدنيا بأكملها صارت مِلك اليمين.. لشد ما كانوا واهمين. دخل عليها حبيبها يومًا والبشر والفرحة يملآن الوجه قائلًا: جئتك بالخير والسعد.

ابتسمت بحنوٍّ مبتهجة لحاله وفي العين تساؤل.

دخل عليّ اليوم رجل محترم ذو هيبة ألقى السلام وقال: أتيت لك من بعيد فقد رأيت بعضًا من مصنوعاتك وأعجبتني دقة الصناعة وجودتها ولي محال في أغلب أحياء القاهرة وأُصدِّر لبعض الدول العربية وأرغب أن تنضم إلى مجموع العاملين عندي مقابل مبلغ نقدي أعلم أنك لن ترفضه، ولكن هناك سفر وغربة ، فكر وشاور وعندما تحزم أمرك اتصل بي على هذا الرقم، ومدَّ يده ببطاقة عليها اسمه وأرقام الهاتف وأرفق معها ورقة نقدية قدرها مائتا جنيه.

كانت الذكرى تحاورها لكن النوم غلبها فراحت مرة أخرى في سُبات عميق.

أفاقت بعد ساعات قليلة وأسرعت بارتداء ملابسها ووضعت جلبابًا قديمًا ترتديه أثناء العمل في حقيبة بلاستيكية، وبهدوء شديد حملت طفلتها وقد لفتها بالأغطية السميكة حتى لا ينفذ إليها تيار هواء بارد فقد جاء الشتاء هذا العام قارس البرودة، وأسرعت بها إلى منزل الجارة، دقت دقات خفيفة وفتحت الأخرى الباب وعيناها تغالبان النوم، حملت منها الطفلة وضعتها على الأريكة المقابلة للباب ووضعت بعض المساند حماية للطفلة وودعت الأم وعادت مرة أخرى إلى نومها.

سارت السيدة لحال سبيلها تجِدُ في الخُطى فهي لا ترغب في سماع تأنيب صاحبة المنزل الذي تعمل به كخادمة باليومية.

أخذتها قدماها إلى موقف سيارات الأجرة واندست تحشر نفسها بين الركاب لتجد لنفسهامقعد بجوار الشباك.

فتحت كيس نقودها تخرج الأجرة تنقدهاللتباع، وأعادت وضع الكيس في المخبأ الأمين في صدرها.

تركت الهواء البارد يلطم وجهها حتى تشعر بلذعة البرد تستمتع بها.

مضى زمن لم تعد تشعر بشيء، وأصبحت المتعة حلمًا بعيد المنال، كانت السيارة تسير بسرعة كبيرة لم تعد معها معالم الطريق واضحة، وعادت تتأمل أعمدة النور تسابق بعضها، عادت بها إلى يوم ودعت الحبيب والعيون تفيض بالدمع والقلب يحترق من لوعة الفراق.

همس بأذنها: لن أتأخر، وهل كنت لأحتمل فراق روحي من الجسد. قبضت على كفيه وقد خنقتها العبرات..

لمَ الفراق إننا في غاية السعاد، ألا ترغب في سماع كلمة «بابا» من ثغر البهية ألن تفتقد كفيها الصغيرتين وهي تناشدك لحملها.

- إنما أفعل هذا لأحقق لكما معيشة طيبة دونما تقصير، لأجعل منك ست الستات في الحي، وحتى أستطيع أن أجعل الورشة مصنعًا صغيرًا يكبر مع الزمن.

قبَّل جبينها واحتضن الطفلة وحمل حقيبة صغيرة وغادر .

انتبهت على صيحة التباع بها: يلّا يا ست انتِ هتباتي هنا

حملت الحقيبة بداخلها الجلباب وانطلقت إلى وجهتها.

عادت آخر النهار تجرجر القدمين من شدةالتعب؛ فقد أهلكتها السيدة التي تعمل لديها اليوم في إنزال الستائر وتركيب أخرى.

دقت على الجارة، اصطحبت ابنتها وعادتا إلى الغرفة.

سألت الصغيرة: مالك يا أمي إنتِ عيانة؟

أجابتها وهي في قمة الإرهاق: لا يا قلبي أنا بخير.

وحتى تسارع بالحصول على سويعات من الراحة ربتت على رأسها قائلة: ستتابع القصة من مكان ما وقفنا.

وبدأت الأم تحكي وقد أخذ منها الإرهاق كل مأخذ.

– كان ياما كان يا سادة يا كرام ما يحلى الكلام إلا بذِكر النبي عليه الصلاة والسلام.

ردَّت عليها الفتاة: عليه الصلاة والسلام.

– إنتِ فاكرة وصلنا لفين؟

ردَّت بسرعة:

– لما خرجت الأميرة بدر التمام تدوَّر على الأمير همَّام.

وتوقفت عن الكلام وسألت قائلة: هي الأميرة بدر التمام سابت بنتها الصغيرة مع مين؟

ردت الأم: مبتسمة مع مربية الأميرة الطيبة.

خرجت الأميرة لابسة هدوم فرسان ومشيت في الليل على ظهر الحصان الجميل حسان تدور على حبيبها الأمير همَّام.

طلعت جبال ونزلت وديان، مشيت بعيد لحد ما وصلت مغارة مهجورة لا فيها قُط ولا أي فيران.

وقف الحصان وصهل وبكل عِند لفَّ رأسه وحرن.

نزلت الأميرة من فوق الحصان وقالت: خلاص نرتاح، كلها كام ساعة والصباح رباح.

ولما هلَّ عليها ضوء الشمس، رفعت رأسها وفتحت عينيها، وقالت : يا رب يا كريم، يا فتاح يا عليم، اجمعني بأميري الحبيب هَّمام فارس الفرسان الهُمام.

وفجأة وعلى غير انتظار رأت فرسة جمالها يلفت الأنظار والغرابة، إن لها جناحين من جمالهم يسحروا العينين.

اقتربت منها بدر التمام ورمت عليها السلام والأعجب من العجب أنها ردت بلسان العرب.

قالت: مولاتي الأميرة لازم آخدك على الجزيرة، وهناك ننقذ الأمير همَّام من عصابة منصور عين الثعبان.

وانحنت الفرسة السحرية لتركب الأميرة الشجاعة القوية، وطارت في السماء لتنقذ الأمير من البلاء.

سابقت السحاب والنسر والعُقاب إلى أن وصلت الفرسة بالأميرة لأول حدود الجزيرة.

نزلت الأميرة وبقيت الفرسة الجميلة، وقالت بهدوء وأدب احذري يا أميرة أن تغرك الجزيرة

فأهلها بشر من طينة النَوْر.

سألت الأميرة: ألا من نصيحة؟

أجابتها : الحيطة والحذر.

فهُم عصابة شر لا يُرجى منهم إلا كل ضُر، وأما في الخداع فلهم أشد باع.

سيري على بركة الله، عين الله ترعاكِ.

وارتفع صوت تنفس الصغيرة المنتظم مؤشرًا لاستغراقها في النوم.

احتضنت الأم ابنتها وراحت إلى دنيا المنام.

بدأ اليوم الجديد بنفس الطقوس ورحلت الأم إلى عملها وهي تدعو الله أن يرزقها من واسع رزقه. وصلت محل عملها واستقبلتها السيدة بقائمة شفوية طويلة لمهام اليوم وأخرى مكتوبة لمشتريات مختلفة من السوق.

أخذت منها القائمة والنقود ونزلت إلى السوق لإحضار المطلوب. وأثناء سيرها دار حوار في النفس لا يخلا من لوم الحبيب.

هل هذه هي الدنيا التي وعدتنا بها، لقد ذهبت ولم تترك لنا بابًا نطرقه للوصول إليك، وعدتني أن أصبح سيدة الحي لا خادمته، جعلتني أعيش وهمَ الحياة الهنية وتركتني وابنتك نعاني شظف العيش والدنيِّة. كانت تسير والدموع تنساب مع خطواتها.

لم يعد أمامي إلا أنت يا الله أشكو له وحدتي وسوء حالي وحال طفلتي .

أتمت شراء الطلبات وحين عادت وجدت السيدة تنتظرها ونظرة لوم مفادها: لمَ تأخرتِ؟ لَم تهتم. وضعت أكياس الطلبات في المطبخ ثم شرعت في إنجاز مهامها اليومية.

فاجأتها السيدة بقولها سيتعين عليك البقاء اليوم لبضع ساعات فقد قدم للزيارة بعض الأهل من بلدة أخرى وسيمرون علينا أثناء عودتهم.

ردت بضيق لا أستطيع سيدتي فطفلتي تركتها عند الجارة ولا أستطيع التأخر عليها

قالت السيدة: إنه عملك وتأخذين عليه أجرًا يحسدك عليه الناس.

نظرت إليها وقد بلغ الغل منها كل مبلغ لا ياسيدتي ان عملي له ساعات محددة اتفقنا عليها لن أستطيع البقاء بعد ساعاته.

ردت السيدة: إذًا ليس لكِ عمل عندي.

وكانت القاصمة؛ فألقت الخادمة ما بيدها على الأرض ونظرت إلى وجه السيدة قائلة: الله حسبي ونعم الوكيل.

لم تكن غيرت من ثوبها بعد، فشدت حقيبتها وسارعت بالخروج من المنزل وهي تحبس دموعها وتتمتم بالاستغفار .

وصلت للشارع وأنفاسها تتهدج جلست على الرصيف تلتقط الأنفاس وتتساءل فيما بينها: ما العمل الآن؟ لقد فقدت عملي مصدر الرزق الوحيد والطفلة لدى الجارة التي تنتظر الجنيهات العشرة إن ما بكيس النقود لا يتجاوز العشرين جنيهًا وبينما هي فيما هي فيه وجدت من يربت على كتفها، استدارت وجدته بواب العمارة مادًا يده ببعض المال، بادرته: ما هذا؟

ردَّ عليها: السيدة تقول إنها نصف أجرتك عن اليوم.

أخذت المال وحمدت ربها وعادت من حيث أتت.

حينما وصلت ذهبت تصطحب ابنتها، سألتها الجارة عن سبب

عودتها مبكرًا فسردت عليها ما حدث فطيبت خاطرها وقالت: لعله الخير، إن ربك لا ينسى أحدًا ورفضت أن تأخذ منها قرشًا واحدًا.

عادا إلى الغرفة والطفلة تكاد تطير من السعادة بعودة أمها مبكرة، لا تدري أي ألم وهم في نفس الأم.

قامت الأم بقلي بعض أصابع البطاطس مع شرائح من الباذنجان وأكلت هي والصغيرة وتبادلتا الضحكات والقفشات، أعادت للأم صفاء نفسها، أما الصغيرة فبدأت في الإلحاح لمتابعة الحدوته.

ابتسمت الأم وقالت: طيب قولي ورايا.

– كان ياما كان يا سادة يا كرام ما يحلى الكلام إلا بذِكر النبي عليه الصلاة والسلام.

ردَّت عليها الصغيرة: عليه الصلاة والسلام

– ودعت الأميرة الفرسة السحرية الجميلة، وبكل إقدام سارت للأمام، فجأة سمعت صوت بصت حواليها ولقيته بعد خطوتين قُدام عنيها، طير أبيض واقع على الأرض وسهم في جناحه داخل بالعرض.

جريت عليه قاصدة تداويه بصِّلها وسكت وبكل حنية خلصته والسهم من جناحه طلعته، قالها يا أميرة إنتِ صاحبة فضل وجِميلة، إمشي في طريقك والنصر بإذن ربي ملك إيدك، وفي لحظة الخطر هتلاقي محسوبك حضر واوعي تستهيني بالمعروف هتلاقي جزاءه من ربك الرؤوف.

أكملت الأميرة طريقها ومن بعيد لمحت بالعين ضالتها؛ معسكر كبير وعليه الحراس كتير ، ومن بعيد شافت قفص حديد جواه أسياد كتير وعبيد، واللصوص حواليهم بالشر مليانة عنيهم.

لمحت بينهم حبيبها: همَّام يا نور العين خطفوك الملاعين.

أنا جاية أخلصك ومن الأشرار راح أنقذك.

في ضَل شجرة استخبت ومن بين فروعها طلت.

بصت لفوق وقالت: يا رب يا سامع الدعا ياعالي في السما..

حبيبي الغالي في القفص محبوس وحواليه أشرار ولصوص

نجيه يارب نجيه ولحضن حبايبه ودّيه.

وفي غمضة عين، الأرض اتشقت اتنين وخرج منها نار وشرار، اللصوص جريوا كل واحد مرعوب ومحتار .

جريت الأميرة على القفص الحديد وفتحت الباب وخرج الكل للحرية من جديد.

خدت الأمير في إيدها وبسرعة لقت الفرسة سبقتها.

فردت الجناح، ركبوا بسرعة، وطارت تسابق الرياح.

وفي لمح البصر وصل الخبر ..

والبلد راحت تهني مولاها الأمير وتغني.

ووقفت الأميرة بدر التمام وَيَا الأمير همَّام وبينهم الصغيرة قمر الزمان..

يحيوا الجميع بالود والامتنان

وتوته توته خِلصِت أحلى حدوتة.

إيه رأيك بقى يا بنوتة؟ ردت الصغيرة وأحلى ابتسامة على الوِش الله يا ماما حلوة الحدوتة.

يعني الأمير رجع للأميرة ولبنته الصغيرة. ترقرقت دمعة في

عـين الأم قائلـة: آه شُـفتِ بقـي ربنـا كريـم ازاي، لازم البعيـد في يـوم مـن الأيـام يرجـع لحبايبـه والفـرح يزيـد.

وحـل المسـاء والأفـكار لا تفارقهـا.. مـا العمـل، وكيـف التصرف؟ وجـدت نفسـها تعيـد دعـاء بطلـة قصتهـا يـا رب يـا سـامع الدعـا يـا عـالي في السـما القلـب مـن كـتر الأسـى موجـوع ومـاليـش غـيرك في الوجـود موجـود.

واحتضنـت طفلتهاالنائمـة في سـكون وهـي في أشـد حـالات الكـرب، وأخـيرا غلبهـا النعـاس ورأت فيـما يـرى النائـم أنهـا تعـدو في حديقـة غنـاء بهـا بحـيرات وزروع ومـاء يسـيل بـين الخمائـل ولأول مرة منـذ زمـن تشـعر بالسـعادة وراحـة البـال أنهـا لا ترغـب في الاسـتيقاظ مـن الحلـم أبـدًا، إن لقطـرات الميـاه المتسـاقطة عـلى الأوراق وقعًـا جميـلًا وأخـذت القطـرات تنهـال تـدق عـلى رأسـها، والـدق مسـتمرٌّ حتـى بعـد أن ابتعـدت عنـه مـا تـزال القطـرات تطـرق فـوق رأسـها.

بـدأت تزعجهـا وتضيـق بهـا حتـى حانـت منهـا التفاتـة فوجـدت نفسـها فـوق سريرهـا وفي أحضـان طفلتهـا، ولكـن الـدق مسـتمر، يـا ربي مـا حـال الطرقـات؟ أتـراني مـا أزال في الحلـم أبـات؟ لم تتوقـف الدقـات بـل اسـتمرت عـلى وتـيرة واحـدة، وأخـيرًا سـمعت صوتًـا تعرفـه مـن همسـه:

- افتحي يا أم بهية الغايب رجع بهدية.

وتوته توته خلصت الحدوتة

تـمَّت

❀❀❀

الفهرس

بائعة الورد ١١
باقة من الدموع ١٧
حلم في زمن الحقيقة ٢٧
مفترق طرق ٣٧
قطعة من السكر ٤٣
لحظات بين الواقع والخيال ٤٧
فات الميعاد ٥١
صانع الأحلام ٥٩
الوجه الآخر ٦٣
عود بخور ٧١
غدًا يوم جديد ٧٩
العرافة ٨٣
مولد أمل ١٠١
قصر الهانم ١١١
رسالة إلى حبيب ١٢٩
حدوتة آخر الليل ١٣٧